صالح مرسي

فريق
متميزون
E-BOOK

خطاب
إلى رجل ميت

مجموعة قصصية

دار نهضة مصر

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

خطاب إلى رجل ميت

صالح مرسي

عن الكتاب..

"... لم أجرؤ على الحديث مع أحد... أعدت الخطاب إلى جيبي وقد شملتني سحابة باردة من الفزع... كان الخطاب إلى رجل ميت!! و اندب في قلبي ذعر شديد. و عندما خرجت إلى السطح كانت السفينة تصارع أمواجاً عاتية. اندفعت مع الرجال أجذب الحبال وأقفز هنا وهناك. كان الصوت يلاحقني في ذلك الفضاء اللانهائي... لسوف تعود حتماً... لسوف تعود."

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ ..

إلـــــــي قبطـــــــان عطـــيـــــــة

وســـعيد وعـــادل وفـــاخـــر ومنعـــم...

رجال السفينة بورسعيد، في رحلة ممتعة...

«صـــالـــح»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغضب

– 1 –

هكذا حدث الأمر...

كل شيء يبدو لي الآن وكأنه حلم أو كابوس... ولست أدري كيف أبدأ أو من أين؟ فأنا لا أذكر شيئًا قبل وصولي إلى السفينة، لست أذكر أين كنت ولا من أين جئت، لا أذكر على الإطلاق رغم محاولاتي العديدة. كل ما أذكره أني وجدت نفسي على ظهر السفينة... كنت أعلم أن لا يد لي في الموضوع أو رأي، كان على أن أذهب، فذهبت!!

وهكذا وجدت نفسي أتطلع إلى السفينة في سعادة، فقد بدت لي منذ الوهلة الأولي جميلة رائعة الجمال، كانت كعروس سَتُزَفُّ بعد لحظات، الأنوار تغمرها من الخارج، أنوار زاهية ملونة بهيجة تشرح الصدر... وغمرتني السعادة وأنا أسرع نحوها وأتسلق سلمها الأنيق قافزًا درجاته في نشوة وقلبي يركض بين ضلوعي... هأنذا أخيرًا أصل إليها ليستقبلني عند قمة السلم عملاق شمعي الوجه، ميت النظرات، يفتَرُّ فمه عن ابتسامة باهتة، ثم انحني لي الرجل في احترام وهو يقول في اقتضاب:

«كنا ننتظرك».

مددت يدي لأصافحه... لكنه ظل منحنيًا وكأنه لا يري يدي الممدودة... فقلت وأنا أسحب يدي إلى جانبي:

«هل تأخرت؟!».

«كلا... إنك لا تستطيع أن تتأخر، ولا بد أن تأتي في موعدك تمامًا، إننا سنرحل بعد لحظات، وهذا هو موعدك بالضبط، ونحن عادة لا نتأخر ولا ننتظر أحدًا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 2 –

أسلمني العملاق إلى عملاق آخر عند باب يؤدي إلى الداخل... ولم أستطع رغم وجه الرجل وبرودة لهجته إلا الابتسام عندما انحني لي العملاق الآخر بنفس الطريقة، وابتسم لي نفس الابتسامة، ووجه إلى نفس النظرات الزجاجية، ثم قال وهو يشير إلى ممر جانبي: «هذا هو الطريق إلى كابينتك».

تبعته وأنا أغمغم:

«ألن يقابلني أحد؟ أين القبطان أو... أو... أو كبير الضباط أو.....؟».

توقفت الكلمات في حلقي عندما التفت الرجل نحوي بغتة وكأنه لدغ، كان واضحًا أنه غاضب أو ثائر، لكن وجهه ظل كما هو، ونظراته لم تتغير.. وسمعته يقول بصوت قاطع كحد الموسي: «كلا.... إنهم مشغولون جميعًا، فهذا وقت الرحيل كما تعلم!!».

الحقيقة أن سعادتي كانت تفوق كل إحساس آخر، ذلك أني في تلك اللحظات لم أُلقِ بالًا إلى لهجة الرجل، فلم يكن يهمني من الأمر كله شيء... يكفيني أني جئت، كل شيء حولي جميل وأنيق ورائع، الممرات الخافتة الضوء، الجدران اللامعة النظيفة، درجات السلم العريض الفخم، الأرض المكسوة بالأبسطة النادرة... وكابينتي عند طرف ممر قصير، فتحها العملاق وهو يدمدم: «إذا احتجت لشيء فليس عليك إلا أن تطلب!».

دلفت إلى الكابينة وأصبحت وحدي.. درت بعيني فيما حولي فراعني كل شيء، الفراش الوثير، الستائر المسدلة، الأضواء التي تنبعث من الهواء نفسه، الهدوء و... وتلك الرائحة الجميلة التي راحت تدغدغ حواسي جميعًا... رائحة بلا مصدر، فليس ثمة زهور في المكان أو بخور، هي رائحة الجدران والفراش والأثاث...

وبلغت سعادتي قمتها!

من منكم لا يشعر بالسعادة لو كان مكاني؟!

لقد جئتها أخيرًا... ولا بد أنها مليئة بالخير والسعادة!

وتسرب الهدوء من الهواء إلى أعصابي فألقيت بنفسي فوق الفراش ورحت أتمرغ فوقه، ودفنت رأسي في الوسائد، وملأت صدري برائحتها العطرة... يا له من قبطان رائع عظيم هذا الذي حول سفينته إلى جنة، لا بد لي أن أذكر له هذا، سأشكره، سأصلي له إن أراد فليس هناك أروع مما أري... الخَدَر يسري في جسدي وذهني، ولذة مريحة تتسلل إلى نفسي، وثقلت جفوني، فتركت نفسي للأحلام.. ونمت!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

– 3 –

عندما استيقظت كانت السفينة قد أبحرت... عرفت هذا من صوت الأمواج في الخارج، أمواج كانت ترتطم بجوانبها في رفق، والمياه تحتك بجدرانها في حفيف منغم، تثاءبت وأنا أتمطي، ودرت ببصري في الكابينة وكان كل شيء على ما هو عليه، حتى الرائحة الجميلة كانت لا تزال تسبح في المكان متجددة، نظرت في ساعتي، وقفزت من فراشي في فزع.

كيف نمت كل هذا الوقت؟!

لا أدري.. كانت الساعة تشير إلى السابعة مساء، وهذا هو «الجانج» في الخارج يدق معلنًا موعد العشاء... لابد أنهم سألوا عني، لابد أنهم طلبوني، لكن أحدًا بالتأكيد لم يوقظني... فكيف تركوني نائمًا كل هذا الوقت؟!

دارت الأفكار في ذهني سريعة وأنا أستعد للعشاء، لابد أن القبطان سيغضب، ولا بد أنه سيتساءل عن سر هذا النوم و... ولكني في النهاية هززت كتفي في لا مبالاة وأنا أغادر الكابينة، جذبت الباب ورائي وأغلقته برفق، بحثت عن المفتاح في ثقبه فلم أجده، انتابتني الحيرة للحظة، لكني سمعت من خلفي صوتًا يقول:

«لا بد أنك تبحث عن المفتاح!...».

رأيت في الممر الخافت الضوء عملاقًا آخر ذا وجه لا يقل شمعية عن وجهي العملاقين الأولين..

«اذهب ولا تخف، فإن أحدًا هنا لا يجرؤ على السرقة... فهو حازم جدًّا!!».

قال الرجل هذا وهو يبتسم بشفتيه دون باقي ملامحه، ثم أشار بأصبعه إلى أعلي وهو يستطرد:

«لقد حرم السرقة وهدد بعقوبات صارمة لمن تمتد يده إلى أشياء الغير!».

«تقصد القبطان.. أليس كذلك؟!».

«بلي.... ».

قال الرجل هذا وهو يضحك ضحكة ناعمة جوفاء، لكنه استمر في حديثه:

«أنا المخصص لهذا الجناح من السفينة، ولقد قالوا له: إنك جئت إلينا... غير أني لم أرك، فقد وجدتك نائمًا منذ وصولك... لا بأس، إن هذا يحدث عادة لكل قادم جديد، هل أنت ذاهب للعشاء؟!».

«نعم....».

قلتها كالحالم فقد انتابتني في تلك اللحظة أحاسيس ومشاعر غريبة، غير أن أهم ما أحسست به هو شعوري بالغوص في لجة غريبة... كان هذا مجرد شعور لكنه طغي على كل حواسي، ووجدت صوت الرجل يأتيني بعد ذلك وكأنه يصدر من بعد آلاف الأميال، لكن الغريب في الأمر أني كنت أعي كل ما كان يقوله جيدًا...

«عليك أن تدور إلى اليمين عند نهاية الممر، ثم تهبط بعد ذلك السلم الكبير، وستجد نفسك أمامها، إنها في طريق كل من يريد أن يأكل، الطعام عندنا وفير!».

ثم ارتد إلى إدراكي وانتفضت منتزعًا ذلك الإحساس الغامض، وكان ذلك في نفس اللحظة التي تركت فيها الرجل ومضيت... إني لم أعرف اسمه، لم يقدم لي نفسه ولم أقدم له نفسي... أليس هذا غريبًا؟! أليست هذه هي عادة البحارة كلما التقي منهم اثنان على ظهر سفينة لأول مرة؟!

كان ذهني مشغولًا وأنا أهبط السلم العريض الفاخر... كنت أفكر فيما قاله لي الرجل، في لهجته الصارمة، وصوته البارد المثلج... و... ومررت في طريقي باثنين عند نهاية السلم، كان أحدهما مرتكزًا على حافة السياج، بينما تسمر أمامه الآخر وهو يقول كلامًا كثيرًا لم أفهمه رغم سماعي له:

«إنه لن يهبط كالعادة... إن أحدًا منا لن يراه أبدًا!».

وانتبه الرجلان لمروري فانحبس بينهما الحديث، ألقيت عليهما تحية المساء فدارت عيونهما في محاجرها، ثم استقرت على وجهي، وتمتمت شفاههما بكلمات لم أسمعها، فقد كنت أبتعد بسرعة، وقد بدأ الجوع يعتصر أمعائي الخاوية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 4 –

بعد خطوات كنت أقف في مدخل غرفة الطعام، القاعة هائلة تتوسطها مائدة مستطيلة رصت فوقها الأطباق، ورائحة الطعام تحتفظ بشذي العطر الذي يفوح من كل شيء في غرفتي... وكانوا جميعًا جالسين في أماكنهم... ليس سوي مكان القبطان - في صدر المائدة - ومكاني أنا - عند طرفها الأيسر - هما الخاليين!!

شددت خطواتي وابتسمت وأنا أمضي نحو مكاني لأجذب مقعدي وأجلس عليه وأقول بصوت مرح النبرات: «مساء الخير!».

ونمت عن الجميع همهمات مختلفة، كانوا منكبين على أطباقهم يأكلون بشراهة غريبة، لا أحد منهم ينظر إلى الآخر أو يحدثه، ولم ينظر أحدهم نحوي... لا كلمة ترحيب ولا ابتسامة مجاملة، ومن جديد عاودني ذلك الإحساس بالغوص في لجة غريبة من الحيرة، وقد زاد من إحساسي هذا أن مال على رجل لا أدري من أين نبت ولا كيف زرع في مكانه هذا خلفي ... كان يميل على ويهمس في أذني بصوت كأنه نحيب: «ماذا تريد أن تأكل؟!».

«أي شيء... أليست لديكم ... ... ».

صاح الضابط الجالس عند الطرف الآخر للمائدة دون أن يرفع رأسه عن طبقه: «اطلب ما تريد ... هكذا أمره!».

كنت أعرف أنه الضابط الأول، فمكانه مجاور للمقعد الشاغر في صدر المائدة ... نظرت إليه فوجدته مستطيل الوجه، شاحب الجلد، أزرق العينين، ناعم المظهر ... ووجدت نفسي أقول في حيرة: «سيدي ... أعتقد أنك ... ... ».

قاطعني مرة أخري وقد بدا عليه التأفف الشديد: «نعم نعم، أنا الضابط الأول، وهذا هو الضابط الثاني، والطبيب. والضابط الثالث، والذي بجوارك هو ضابط الطعام.. ثم، ثم أظنك تعرف مركزك هنا!!».

«وأين القبطا ... ...؟».

قاطعني بصوت صارخ:

«هذا هو السؤال المعتاد، وإليك الرد المعتاد... لقد ترك لي كل شيء، أنا هنا أقوم بكل مهامه!».

«و... ولماذا لا .....؟ لماذا لا يأكل معنا اليوم؟!».

فجأة حدث شيء غريب.

سقطت كل الملاعق، وكفت الأيدي عن الحركة، والأفواه عن المضغ، وتلاقت العيون بسرعة ثم تحولت كلها نحوي وكأنها تريد أن تحاصرني، وتحشرج صوت أحدهم وهو يزمجر في فزع: «إنه يسأل... إنه يسأل!!».

وقال آخر:

«لن ينفعنا هذا الرجل، لن ينفعنا... لقد قلت هذا من قبل!».

ناح صوت الضابط الأول مهددًا:

«كيف تجرؤ؟! كيف تفوه بمثل هذا الكلام؟!».

وغمغم الطبيب وكان يجلس قبالتي: «إنه لا يزال صغيرًا وحديث العهد بنا... إنه لا يعرف شيئًا بعد!».

وتوقفت أذناي عند هذا الصوت، تمامًا كما توقفت عيناي في عيني الطبيب... ولأول مرة منذ وطئت قدماي هذه السفينة رأيت عينين تكسوهما طبقة ندية، وفي أعماق إنسانيهما شيء... لم يكن جلده مشدودًا ولا تحمل ملامحه تلك القسمات الصخرية، وعندما ابتسم أحسست بابتسامته تصل إلى قلبي، لم تكن كابتسامات الآخرين الذين كانت شفاههم تتمدد في اتجاهين متضادين لا أكثر ولا أقل. وتحرك الضابط الأول فقبض على عنق الفوطة ثم مسح شفتيه وهو يتمتم: «حقًّا... إنه لا يعرف شيئًا ... إنه لم يعرف بعد!».

كانت كلماته وكأنها سكين بارد يقطع أوصالي، كانت وكأنها صفعات أو بصقات يلقيها في وجهي ... غزاني الخوف قاهرًا ومدمرًا، لكنه كان خوفًا مشوبًا بالضيق، بشيء كالغضب دفعني لأن أقول: «ما الذي حدث؟ ماذا فعلت؟! كل ما هناك أني سألت عنه، أليس هو قبطان هذه السفينة؟ أليس من حقي أن أسأل عن الربان؟!».

«لا...».

صرخها الضابط الأول بصوت كأنه فرقعة سوط...

«ليس من حقك إلا أن تطيع الأوامر، إنه قاس جدًّا مع من يعصيه... وهذه أوامره، وعليك أن تعرف كيف نعيش، وأن تؤمن بكل هذا دون سؤال... وإلا، فلن يكون أمامي سوي تنفيذ تعليماته وأحكامه، إنني مسئول عنكم أمامه، وهو لا يري أحدًا غيري، ولا يغادر كابينته مهما حدث، لأنه ليس في حاجة إلى هذا!!».

تبلور خوفي واشتعل في صدري وتحول إلى غضب جامح، كان كل ما يقوله ذلك الرجل غريبًا، لم يكن يتحدث، كان يخنقني بكلماته ويسد على صدري

منافذ الهواء، ووجدت نفسي أنتفض قائلًا: «إن كان هو لا يريدني فأنا أريده، ولا بد لي أن أراه... بل ... بل إني صاعد إليه الآن ... الآن!!».

أزحت مقعدي ونهضت من مكاني، واصطدمت في اندفاعي بالجالس على يساري، ومضيت إلى الخارج وأنا أحس بوقع نظراتهم على ظهري، وكان آخر ما سمعته وأنا أغادر القاعة، هو صوت ناعم بارد سال ورائي كالثعبان!

«اتركوه فلسوف يندم!».

ثم اندفعت إلى السلم أقفز درجاته ... كنت مهتاجًا مغيظًا، ومررت في طريقي بالاثنين اللذين كانا يتحدثان وأنا في طريقي إلى قاعة الطعام ... كانا يقفان في نفس المكان، وبنفس الوضع الذي شاهدتهما عليه منذ دقائق وكأنهما تمثالان من شمع متجمد ... وما لبثت أن انثنيت إلى ممر جانبي واندفعت منه إلى ممر معتم شديد الظلام، والمرئيات لا تكاد تستقر عليها عيناي ... ودهمني شعور حاد بالانقباض وأنا أتجه نحو سلم ضيق رحت أقفز درجاته مسرعًا، كنت موقنًا أن هذا السلم بالذات يؤدي إلى كابينة القبطان، كنت موقنًا أشد اليقين ولست أدري لماذا ... غير أني ما كدت أصعد بضع درجات حتى اصطدمت عيناي بقدمين هائلتين تقفان عند قمة السلم. فوقفت!

تسلقت عيناي الحذاء الضخم ثم الساقين، ثم الجسد العملاق حتى وصلت إلى الوجه الذي لم أميز من ملامحه شيئًا... كان المكان مصبوغًا بالضباب، ورأس الرجل شاهق يكاد يختفي في السقف، وانتابتني رجفة شملت جسدي كله، وخرج صوتي مبحوحًا: «هل تسمح؟!».

«ماذا تريد؟!».

جاءني الصوت من أعلي كالرعد...

«أريد مقابلته ... أريد أن أراه!».

«ماذا؟!».

قالها الصوت في استنكار ساخر...

«أريد أن أراه!».

«هل أنت مجنون؟!».

«أليس هذا من حقي؟... إني ... ».

«كلا... ».

«أوسع لي الطريق... إني آمرك فأنا ... ... ».

وأطلق العملاق ضحكة الْتَفَّتْ حول عنقي، وغَزَانِي الخوف من جديد فَشَلَّ تفكيري...

«إذا لم تدعني أمر فلسوف ... سوف أصرخ... سوف أناديه!».

«لن يجيبك ولو صرخت طول عمرك!».

«ماذا تعني...؟ ومن أنت حتى تقول لي... ...؟ ».

«اذهب!».

«كيف تحدثني بهذه اللهجة؟! وكيف تأمرني... ...؟!».

«قلت لك اذهب!».

كان هذا آخر ما سمعته في ذلك الوقت: صوت كالزئير وحذاء ضخم يرتد إلى الخلف ثم يرتفع في الهواء مرتطمًا بوجهي... ولا شيء بعد هذا... لا شيء على الإطلاق!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 5 –

عندما أفقت كنت أرقد في الفراش... ارْتَدَّتِ الحياةُ إلى أطرافي أولًا، ثم إلى أذني... ودون أن أفتح عيني استطعت أن أميز كل من في الغرفة... كانت هناك أصوات عديدة ميزت منها صوت الطبيب والضابط الأول... وعرفت أن الطبيب هو الذي كان يمسك رسغي بأصابعه.

«هذا حسن... سيفيق بعد دقائق ليصبح واحدًا منا - ولن يفتح فمه بعد ذلك!».

«إنه من النوع العنيد!».

«ماذا تقصد؟!».

تنهد الطبيب ثم قال:

«لا شيء... ومن الخير أن نكف عن الكلام حتى لا نزعجه!».

«أتظن أنه سوف يتمرد مرة أخري؟!».

ران الصمت ونفذت الرائحة العطرة إلى صدري... وعاد صوت الضابط الأول يزحف في الجو: «إن فعل فالأوامرصريحة والتعليمات لا تقبل المناقشة، وما علينا إلا أن ننفذ ما أمرنا به!».

«لكنه لن يخضع!».

«إذن فلسوف نلقي به إلى الحيتان... إن حيتان البحر جائعة!!».

بعثت الكلمات الرعب في قلبي... ما الذي سيفعلونه بي؟ وما الذي يجب على أن أفعله؟ وكيف أخضع لهم؟ هل أطيع وأفعل مثلهم؟! إني لست مخلدًا في هذه السفينة، ولسوف أغادرها ذات يوم لا أعرفه، هي أيام سوف تمضي على أي حال، فلماذا لا أقضيها في هدوء؟!

وجاءني صوت من آخر الغرفة:

«تري ماذا يكون اسمه؟».

«ليس مهمًّا أن يكون له الآن اسم، ليس مهمًّا على الإطلاق».

وقال الطبيب:

«لقد عاد إلى حالته الطبيعية!».

وكأنما كانت جملته هذه إيذانًا لي بأن أفتح عيني، فقد وجدت نفسي أفتحهما مرة واحدة... كان الضوء خافتًا لا أتبين فيه سوي أشباح، فصرخت في جزع: «أضيئوا الأنوار».

«إن النور مضاء!».

«أريد مزيدًا من الضوء، مزيدًا من النور!».

«الضوء هنا لا يزيد على هذا، هذه حدوده التي رسمت له، هذه تعليماته!».

وانتفضت في صدري من جديد تلك البذرة الغاضبة، انتفضت وسط ألوف المشاعر المتضاربة والأحاسيس المتباينة... كنت أرتجف عندما وضع الطبيب يده فوق كتفي ليعيدني إلى الفراش قائلًا: «لا تجهد نفسك، لا بد أن ترتاح!».

«أنت الطبيب، أليس كذلك؟!».

«بلي... ».

«هل كتبت في تقريرك حقيقة ما حدث لي؟!».

«تقريري..؟! أي تقرير؟».

غمغم الباقون من حولي فصحت في الطبيب: «لقد اعتدي على ذلك العملاق الذي... ... ».

وجاءني فحيح الضابط الأول كالسم القاتل: «ألا تزال عنيدًا؟!».

«سأحاول رؤيته مرة أخري... سوف آراه حتمًا!».

«لن تراه... فهو لا يري سواي ولا يراه سواي، لقد خول لي جميع السلطات!».

«وماذا يفعل هو إذن؟!».

صرخ أحد الأشباح من آخر الغرفة:

«اخرس... إياك أن تفوه بهذا السؤال مرة أخري، فهو لا يسأل!!».

ما كدت أفتح فمي حتى امتدت يد الطبيب إلى رسغي من جديد لتضغط أصابعه على الرسغ برفق... وتحرك الضابط الأول في مكانه، ثم نظر إلى وهو يقول: «خير لك أن ترتاح حتى تشفي، ولا تسأل كثيرًا، ولسوف تجد هنا كل ما تريد من طعام أو شراب، و... وكل ما تريد، فقط... افعل ما تؤمر به، هذه هي حدودك!!».

واستدار الرجل ومعه الباقون، ثم غادروا الكابينة في صمت وتركوني مع الطبيب... وما إن أغلق الباب خلفهم، حتى استدرت نحوه صارخًا: «ما الذي يجري هنا؟!».

ضغط على يدي بقوة غريبة حتى خلت أن عظامي ستتكسر، أومأ نحو الباب وبرقت عيناه محذرة وهو يقول بصوت هادئ: «لا تُسِئ الظن إلى هذا الحد، ألا يكفيك أن تجد هنا ما تريد؟!».

وساد بيننا الصمت للحظات كانت عيناه أثناءها لا تفارقان الباب... ثم قال بنفس النبرات الهادئة: «إنه يفرض نظامًا رائعًا!».

وهمست بصوت خفيض:

«أريد أن أعرف... لماذا ... ...؟ ».

«أليس أقصي ما يتمناه الإنسان أن يجد ما يأكله وما يشربه؟!».

«لكني أريد أن ... ... ».

«دع الأمور تجري كما يحلو له ما دامت هذه هي رغبته، وما دمت تحصل على ما تريد!».

«إنني... ...».

«هكذا تصبح حياتك رائعة... وبلا مشاكل!».

وكان لابد أن أنتظر لحظات صمت أخري... التفتَ إلى الطبيب بعدها ثم ابتسم وهو يقول بنفس الصوت العالي الواضح: «إنه عادل جدًّا، لكنه بقدر عدله يصبح قاسيًا إذا ما عصاه أحد... لقد أمر بإلقاء الكثيرين لحيتان البحر الجائعة، وأنت لست منهم... لن تكون منهم أبدًا!».

همست وأنا أقترب من أذنه:

«أريد أن أراك... أريد أن أتحدث إليك، إلى أي أحد!!».

سبحت ملامحه في ابتسامة لم تبن، وأومأ برأسه موافقًا ثم نهض قائلًا: «سأتركك الآن لترتاح، وعليك ألا تنام كثيرًا فلن يفيدك النوم بعد الآن!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 6 –

غادرني سابحًا في هواء الكابينة، وساد السكون، سكون عميق كانت تتخلله أصوات الأمواج في الخارج، وتذكرت البحر، تذكرت أني لم أر البحر منذ صعدت إلى السفينة، وتذكرت أني لم أفتح النافذة منذ جئت إلى الكابينة... تحاملت على نفسي وأنا أنهض من الفراش متجهًا نحو النافذة، كنت أشعر بالاطمئنان لأول مرة منذ جئت... بدا لي الأمر كحلم مزعج لابد أن أفيق منه، وتذكرت يد الطبيب عندما ضغطتْ عظام رسغي محذرة، كيف تتأتي له هذه القوة بالرغم من نحول جسده؟!

زمجرت الأمواج في الخارج وبدأت السفينة تترنح تحت ضرباتها، وبدأت أتمايل في وقفتي وسط الكابينة وقد بدأ الغثيان يصيبني، وامتدت يدي إلى النافذة كي أفتحها فترنحت السفينة مرة أخري تحت ضربات موجة تعالي صوتها في الخارج كزئير وحش هائج، وترنحت وكدت أسقط على الأرض... وصفر الهواء وعوت الرياح وهبت العاصفة على غير انتظار... أحسست أني أختنق، كان لا بد لي من هواء نقي، مددت يدي من جديد إلى النافذة فارتطمت بسطح أملس لا باب له، بحثت عن القفل فلم أجده، حملقت في الضوء الخافت فإذا النافذة موصدة، وإذا زجاجها كاذب لا يشف عما خلفه ... وبدأت قواي تخور من جديد، وأحسست بجسدي يتهاوي، تذكرت رجل الصباح ووقعت عيناي على زر صغير رحت أضغط عليه بكل قواي، فانفتح الباب وظهر الرجل: «هل أستطيع أن أقدم لك أي شيء؟!».

«افتح هذه النافذة... إني في حاجة إلى الهواء!».

«إنها لا تفتح!».

«ماذا؟! لماذا!؟».

«إنها لا تفتح!».

«كيف؟ أليست نافذة؟».

«إنها أوامره وتعليماته... إن فتح النوافذ قد يغرق السفينة!».

«لكني... ».

«لا مجال للجدل... إنها لا تفتح وهذا هو كل شيء!».

«إن في الخارج عاصفة!».

«أعلم ذلك!».

«البحر هائج، والموج عال!».

«أعلم ذلك!».

«وهل تعلم كيف حدث هذا؟ لقد غادرنا الميناء منذ ساعات قليلة وكان البحر ... ... ».

«منذ ساعات؟!».

ضحك الرجل دون أن تختلج في وجهه عضلة، أخذ يردد الجملة وهو يضحك من داخله، ثم توقف عن الضحك وقال بتأفف وملل: «لقد غادرنا الميناء منذ أربعة أيام... إننا الآن في المحيط!».

«أربعة أيا... ... ».

«كنت تهذي طوال هذا الوقت... لقد كنت تهذي!».

«ولكن ... و... ».

«والعاصفة في المحيط تهب بلا مقدمات، دون إنذار!».

«أربعة أيام؟ ... أربعة أيام؟!».

«وهم جميعًا في الخارج يقاومون العاصفة... إنهم في الخارج جميعًا!».

وقبل أن أفيق اقتحم الطبيب الغرفة وعلي وجهه ألف انفعال، وما إن وقعت عيناه على الرجل حتى ارتدت ملامحه إلى الجمود ونظر إلى مبتسمًا وقال: «لقد غادرت فراشك إذن!».

نظرة منه إلى الرجل، تقهقر بعدها منسحبًا في هدوء ثم أغلق الباب، واقترب مني الطبيب: «هل أنت مستعد؟!».

«لا... ».

قلتها بصوت باتر لم أعهده في نفسي، كنت مغيظًا غاضبًا ودمائي تغلي، استدرت مشيحًا عنه في عناد، لكنه اقترب مني وهمس في أذني: «إنهم الآن مشغولون بالعاصفة، هذه فرصتنا!».

التفت نحوه فأحسست وكأن الظلام يكتنف الدنيا كلها.

«لست أريد سوي نسمة هواء!».

«لن تحصل عليها وحدك!».

«هواء السفينة فاسد!».

«ليس لدينا وقت نضيعه في الكلام!».

«هل حقنتني بمخدر؟!».

«الهواء يزداد فسادًا كلما تأخرنا!».

«هل حقنتني بمخدر؟!».

«ولماذا تسأل سؤالًا كهذا؟!».

كدت أبكي من الغيظ، فحتي تلك اللحظة لم أكن أستطيع أن أركز انتباهي على شيء معين، لم أكن أدري شيئًا أو أعرف شيئًا، أريد أن أعرف... وعدت إلى الصراخ من جديد: «قال لي ذلك الرجل إني ظللت أهذي أربعة أيام!».

«هذا صحيح!».

«كيف...؟ كيف يمكن أن يحدث هذا؟!».

«هذا دائمًا ما يحدث، بل لا بد أن يحدث!».

«لست أفهمك... لست أفهم شيئًا!».

احتدت نظرات الطبيب لأول مرة وهو يهمس في صوت غاضب: «لا وقت عندي لهذا الهراء، هل تأتي معنا أم لا؟!».

«إلي أين؟!».

«إليه!!».

«لن نستطيع!».

«ليس أمامنا سوي هذا، إن الهواء يزداد فسادًا لحظة بعد أخري، ولن تمر أيام حتى نختنق جميعًا!».

«سيقاومونا!».

«أعرف، أن على بابه حراسًا كثيرين!».

«سوف نهزم!».

«لو أردنا أن ننتصر فلسوف ننتصر!».

«وهل أقوي على هذا؟!».

«إنك كالثور في قوته!».

«ولكني مريض!».

«لست مريضًا».

«إني حائر».

«إنه اليأس».

«لست أحمل سلاحًا».

«عليك إذن أن تغضب، وهذا يكفي!».

«أنذهب وحدنا؟!».

«الجميع معنا... كل الغاضبين!».

«لن يأتي أحد منهم!».

«ليس لدي وقت بعد هذا... أتأتي أم لا؟!».

اندفع الطبيب مغادرًا الكابينة فدهمني خوف قاهر، ندت عني صرخة مرتعبة فاندفعت وراءه دون تفكير، تذكرت كل ما حدث لي وبحثت عن الغضب في نفسي فلم أجده، شيء واحد كان يدفعني خلف الطبيب... كنت أريد أن أري الربان!

رحت أتخبط خلف الرجل داخل الممرات التي بدت معتمة، كانت السفينة تترنح تحت ضربات الموج العاتي، وكانت قدماي تترنحان في الهواء بحثًا عن أرض، كانتا تتوهان طويلًا ثم تجدان في النهاية أرضًا لا قرار لها... وعندما دلفنا إلى الممر الرئيسي لمحت في نهايته أشباحًا كانت تتزاحم بلا صوت، اخترق الطبيب جمعهم؛ فاستداروا جميعًا إليه، وجدت نفسي وسطهم، ونحن نسبح من ممر إلى سلم حتى أصبحنا أمام السلم الموصل إلى كابينة الربان... عرفت السلم فارتجفت أوصالي وعيناي تصعدان درجاته وتصطدمان بالحذاء المريع.. وزمجر رجل في وسط الجمع: «هواء... نحن في حاجة إلى الهواء... سوف نختنق!».

ورعد العملاق من أعلي السلم بصوت تزلزل له كياني: «ماذا تريدون؟!».

وصاح فيه الطبيب بصوت ثابت:

«نريد أن نراه!».

«لن يراه أحدكم!».

«أفسح الطريق ولسوف نذهب إليه!».

«من يقترب منكم فمصيره حيتان المحيط الجائعة!».

وصرخ أحد الرجال فجأة وهو يندفع نحو السلم: «هواء... نريد هواء!».

دفعنا الرجل بذراعيه وقفز السلم مسرعًا، غير أنه سرعان ما هوي متدحرجًا مضرجًا في دمائه، فاقدًا وعيه... سقط بين أقدامنا ساكنًا لا يتحرك، وسقط قلبي بين ضلوعي، أحسست وكأن جسدي من الخوف قد تحول إلى خرق جمعتها يد غير مدربة، وانتابتني غيبوبة أيقظتني منها صرخة أخري وجسد آخر هوي بين قدمي ساكنًا بلا حراك، وترقرقت في أعماقي دموع لم تنهمر، حاولت البكاء لكن عيني لم تذرفا دمعة، أحسست بالغيظ وصوت الطبيب يصل إلى أذني ممزقًا بالغضب: «ابتعد عن الطريق فأنا صاعد إليك!!».

قال الطبيب هذا ثم اختفي في ظلام السلم، هبطت بعيني إلى حيث تكومت الجثتان ورحت أنتظر سقوط الجثة الثالثة، بلا عاطفة، بلا كراهية، ولا حب... انتابني اليأس لكن انتظاري طال فلم يسقط الطبيب، رفعت عيني إلى السلم فرأيت الحذاء الغليظ يرتد إلى الخلف ثم يندفع إلى الأمام ليرتطم بوجه الطبيب في ضربات قاتلة... إنه نفس الحذاء، ونفس الطريقة، الغيظ في أعماقي يفور والدموع تتحجر والطبيب ما زال متشبثًا بمكانه لا يسقط، ثم تذكرت ما حدث لي فانتفض الغضب معربدًا في صدري، ودقت في أنحاء السفينة أجراس الخطر، واختلط رنين الأجراس بالصرخات والصيحات، والطبيب في مكانه لا يتزحزح، والدماء تنزف من وجهه، والحذاء يرتد؛ لينطلق بجنون، والصرخات من حولي تلهب دمائي فإذا بي أصعد السلم كالمجنون، وأنفذ من جوار الطبيب، وترتد القدم إلى الخلف وتتمايل السفينة ويترنح العملاق وألقي بكل جسدي عليه، وأصرخ، أصرخ كالمجنون... ويسقط العملاق ويندفع من فوق جسدي عشرات الرجال، ورأس العملاق بين كفي، وعيناه مليئتان بالموت فلا حراك ولا جزع... وكل شيء يغيم، والأصوات تتداخل، والأحداث تجري بنا، وإذا بي أقف مع الطبيب أمام باب الكابينة المغلق، وفوق الباب قرأت كلمة «السيد»!

امتدت يدي لتفتح الباب لكنه لم يفتح، نظرت للطبيب مستغيثًا فقال: «لابد من تحطيمه!».

وتوقفت نظراتي فوق وجهه فشهقت، وتراجعت إلى الخلف، لم يكن الوجه مصابًا بشيء، ولم تكن هناك دماء تنزف، سألني الطبيب عما بي فلم أنطق، رحت أهز رأسي غير مصدق، وأنا أشير إليه ونظراتي تتردد ما بين وجهه وجسد العملاق الممد على الأرض بلا حراك... أين الدماء؟ وأين ضربات الحذاء الغليظ؟!

وابتسم الطبيب وكأنه قرأ أفكاري ثم تمتم: «لقد محاها الغضب!».

قالها وهو ينقض على باب الكابينة بكل جسده، فهوي الباب تحت ضربته، واندفعت أزاحمه إلى الداخل وفي حلقي ألف صيحة، غير أني ما كدت أتوسط الكابينة حتى تسمرت في مكاني، واحتبست الصيحات في حلقي... فقد كانت الغرفة خالية!!

رحت أنظر إلى الطبيب فوجدت ابتسامته قد ازدادت اتساعًا، وسمعته يتمتم وكأنه يحدث نفسه: «كنت متأكدًا من ذلك، كنت موقنًا أنه ليس موجودًا!!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 7 –

ساد الصمت تمامًا... ووقفت مع الجميع ساكنين للحظات، لم يكن أحد هناك، لا حراس ولا وجوه شمعية ولا عيون زجاجية... والكابينة خالية تمامًا.

حتى العاصفة في الخارج كفت وهدأت واستقرت السفينة في سيرها... وتقدم رجل نحو باب السطح ليفتح، لكن الباب لم يفتح... تردد الرجل للحظات ثم صرخ في الجميع من حوله: «الأبواب هي الأخري كانت موصدة... هواء... هواء... نريد هواء!!».

وقال الطبيب وهو يتقدم وفي يده معول:

«لا بد من تحطيمها... لابد».

وانهلنا جميعًا نحطم الأبواب والنوافذ، واندفعت نسمات الهواء تملأ السفينة، وغمرنا الضوء لأول مرة، ووقف رجل يغسل جسده في النور وهو يصيح: «إنها الشمس... إننا في النور!».

واندفعنا جميعا إلى الخارج، كنا نبحث عن ذوي الوجوه الشمعية والعيون الزجاجية، لكننا لم نجدهم... كانت العاصفة قد ابتلعتهم جميعًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القــــرش

– 1 –

... وهكذا لم يعد أمامنا سوي أن ننتظر معه وعيوننا معلقة بالصنارة العارية عند السياج الخلفي... وهكذا تناثرنا من حوله فوق سطح السفينة وقد تمزقت ملابسنا،ونزفت دماؤنا، وتسلخت جلودنا وتورمت أقدامنا وتشققت شفاهنا، وتحجرت النظرات في عيوننا... وأصبحنا - بين يوم وليلة - كالجثث الحية على سطح سفينة نفد وقودها، وابتلعته مياه البحر بعد أن مزقت الأمواج جوانبها، واقتلعت صواريها، ودمرت غرفة قيادتها، وأتلفت بوصلتها، ونفذت المياه إلى أجزاء منها.

ولم يعد يعنينا أن نعد الأيام؛ فلم يكن ذلك في الحقيقة ممكنًا... اختلط الليل بالنهار، وأظلمت السماء وتلبدت بغيوم كثيفة داكنة حجبت عنا الشمس والنجوم وأصبحنا نحسب الزمن كلما طالت ذقوننا واسترسلت شعورنا... كنا معلقين في فضاء بلا شاطئ في انتظار معجزة!

... وهكذا مرت العاصفة بعد أن دمرت كل شيء وتركت السفينة كقطعة من الحديد الممزق العائم فوق سطح مجهول بلا حول ولا طول، وأمواج البحر تسحبنا إلى ظلمات لا عهد لنا بها... حتى الأسماك اختفت، وشح الطعام في السفينة، وأصبح نصيب كل منا حبة واحدة من البطاطس كل يوم، وتناقصت مياه الشرب فأصبح الحصول على رشفة منها كنزًا لا تعادله كنوز الأرض... وفقد الكثيرون أعصابهم، وفقد البعض عقولهم فألقوا بأنفسهم في المياه مؤثرين الموت، وهم يصرخون صرخات مجنونة... وأمر القرش بإطلاق الرصاص على رجل حاول أن يغتصب لنفسه كوبًا من المياه بالقوة!

وهكذا لم يعد أمامنا سوي أن ننتظر مع القرش طوال الزمن الرتيب ونحن نحملق في الأفق الداكن نرقب قدوم المستقبل، ونتسمع إلى خطواته في حفيف الرياح، وأسنام الموج تمضي من حولنا في وشوشة يبتلع الفضاء صداها... ومع الزمن ثقلت حركة الرجال، وبقي كل منا في مكانه فوق السطح يرقب القرش القابع بجوار السلك الطويل الممتد من الونش حتى مؤخرة السفينة، في نهاية السلك صنارته الطويلة المعلقة في الهواء بلا طعم تكاد تلامس سطح المياه دون أن تغوص فيها... وكان القرش يظل في جلسته هذه بالساعات، وقد تسمرت قدماه العاريتان فوق السطح، وارتكن بذراعيه فوق ركبتيه، ورأسه مشرع إلى الأمام، وعيناه تبرقان، وهما تتطلعان إلى مياه البحر الساكن تمامًا!

كانت بداية رحلتنا هذه كبداية كل رحلة سبقتها... ساعة الرحيل بضجيجها وصخبها وهدير الآلات والأوناش وصيحات الرجال وصرخات القرش تملأ سطح السفينة، وتبدو العنابر مفتوحة وكأنها معدة هائلة لكائن لا يشبع، ويبدو

الرجال على السطح وفوق الصواري والحبال كالقرود، وعلي الرصيف جموع المودعين والأصدقاء والزوجات والعشيقات وكلمات الوداع وتوصيات التحية مع الفرحة الممزوجة بألم الفراق، ثم تدوي صفارة السفينة زاعقة زعقة الرحيل، فيزداد الهدير ويتسلق القرش الصاري الكبير وتبرق عيناه بالفرح الهائل وهو يصيح في الرجال فيلهب حماسهم، ويلوح بذراعيه إلى المودعين، فترتفع له عشرات الأذرع.... وتتحرك السفينة في بطء لتغادر الرصيف إلى مياه الميناء الضحلة وهي تئز أزيزًا خافتًا، وتهدر الآلات في جوفها ذلك الهدير الصاخب حينًا الهادئ حينًا آخر... حتى إذا استقبلت باب البوغاز وابتعد الرصيف خفتت الأصوات، ومالت الشمس بقرصها المتوهج نحو الغرب، ويبدو الأفق من بعد حاجز الأمواج صافيًا شديد الصفاء، ويختفي ذلك الضباب الذي يصنعه غبار الموج عادة، وتبدو الأعلام الملونة على صاري السفينة مرفوعة في جذل، وتسبح صيحات القرش في سماء الميناء بهدير له نغم الموج العالي:

«لم البارومة في البروة!».

«اسحب الواير على الونش في الأش!» «اقفل العنابر وارمي المشمع يا بحري!».

وقبل أن تبدأ الخطوة الأولي في رحلة آلاف الأميال، يصيح القرش من مكانه العالي:

«إديني تمام على الفلايك يا ريس!».

وقتها... ينتظم الهدير في جوف السفينة، ويستقبلها الموج في صفعات رقيقة، وتتمايل السفينة يمنة ويسرة وتبدأ الشمس في ملامسة حافة الأفق، وكلما انحدر قرصها كبر وازداد اتساعه، حتى إذا اختفي نصفه بدأ النصف الآخر كبوابة أسطورية لعالم دافئ... وتدور السفينة بعد انطلاقها من الميناء إلى عرض البحر الواسع، لتتجه نحو القرص الذي يبدو وكأنه يستعد لاستقبالنا في نهاية الرحلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 2 –

وهكذا كانت بداية رحلتنا كبداية كل رحلة... وهكذا أصبحنا في عرض البحر ننتظر ليالي القرش الصاخبة وحكاياته وحديثه ونحن نتطلع إليه وهو جالس على سطح السفينة يعد صنارته للصيد العظيم... وهكذا كان حاله دائمًا... فما إن تغادر السفينة مياه الميناء، وينتظم الهدير في جوفها حتى ينكب القرش على الصنارة التي لا يعرف سرها إلا هو... كان يجلس على السطح ليعمل بيديه وقدميه معًا، يمسك سلكها الرفيع الصلب بأصابع يديه وقدميه، ويعكف عليها بالساعات في صمت فيبدو وكأنه يصلي في معبد.. كان وقتها يتمتم بصوت خافت وكلمات لا نستطيع سماعها وكأنه يحدث شبحًا ... كنا نرقبه وقد تحولت ساقاه إلى ذراعين، وقدماه إلى كفين، فإذا هو كائن غريب بأربع أذرع وأربع أيد ورقبة عريضة مربعة بارزة القسمات وكأنها قطعة من «صار» صغير ركبت على الجسد لتحمل فوقها رأس سمكة بشرية...

في مثل تلك اللحظات، لم يكن أحدنا يجرؤ على الاقتراب منه أو الحديث معه... وفي مثل تلك اللحظات كان الرجال في المواخير وعلي أرصفة المواني يصخبون ويشربون ويدخنون وهم يتحدثون ويؤكدون أن القرش سيصطاد هذه المرة، وتثرثر النسوة في بيوت المواني الواطئة، وفي الحواري والأزقة. وهن يجرعن كئوس الخمر الرخيص، أو يصرخن بأصوات مشروخة مع أنغام أغنية، أو في أحضان بحار جلس يقص على الرجال كيف يصطاد القرش سمك القرش الأزرق وكيف يرمي في البحر صنارته... وتنعقد فوق الرءوس سحابات الدخان فيختنق الضوء ويعم الصمت، وينصت الجميع حابسين أنفاسهم، ويعلق رجل تحدث مع القرش قبل الرحيل، وتؤكد امرأة كان لها حظ قضاء ليلة بين ذراعيه، وتسيطر على الأذهان أحلام الانتصار، ويتساءل الجميع متي يصطاد القرش سمكة القرش الأزرق... ويؤكد البعض، وينهض البعض وقد استولي عليهم اليأس، وينفض السامر وقد علق الانتظار برقاب الجميع كقدر لا مفر منه!

في مثل تلك اللحظات كان يحلو لنا أن نرقب القرش وهو جالس على سطح السفينة وقد تخلصنا من أسر الأرض وانطلقنا في الفضاء الواسع... كان يجلس بالساعات منحنيًا فوق صنارته الغريبة ذات الطرفين المدببين اللامعين كهلب صغير ... وساقها تبدو لنا على البعد كعصا ساحر، في نهاية الساق يمتد السلك إلى عشرات الأمتار، ثم يدور حول أسطوانة الونش الصغير يملؤها... وتمضي الدقائق والساعات ونحن ننتظر، حتى إذا اطمأن القرش إلى سلامة صنارته فاحت في الجو رائحة اللحم الأبيض النفاذة، وبدت لنا يده وهي تحمل اللحم لتكسو ساق الصنارة وطرفاها كيد ساحر يأتي بالمعجزات، تفوح الرائحة وتنفذ الصنارة إلى الكتلة البيضاء الناصعة وتغوص فيها، وتضغط عليها

الأصابع العريضة الشديدة السمرة، ويبدو في عيني القرش ذلك البريق الخاطف، وتلك البسمة التي تنبسط فوق ملامح الوجه كله.. وكان القرش ينهض بعدها وهو يحمل الصنارة في صمت، ويعبر سطح السفينة حتى يصل إلى مؤخرتها، ثم يقف ملتصقًا بالسياج، يطل على الموج برأس شامخ ... ثم يرفع ذراعه بالصنارة ويملأ صدره بشيق شره، ويدير الصنارة فوق رأسه دورات تزداد سرعتها حتى يصبح لدورانها في الهواء صفير حاد يخترق الآذان... وتفلتها أصابع القرش فتنطلق في الهواء كالسهم، تبتعد وتبتعد ثم تهوي إلى المياه وتغوص فيها ساحبة خلفها أمتار السلك الطويل حتى النهاية.

وقتها فقط ... كان القرش يعود إلينا، يتحدث ويصخب مع الرجال، ويقسم إنه لا بد وأن يصطاد القرش الأزرق هذه المرة... وكنا نصدقه وننتظر معه، ونحبس أنفاسنا وعيوننا معلقة بالموج الهادر!

سنوات وسنوات ونحن نعيش مع القرش وننتظر معه، سنوات وسنوات ونحن ننتظر في قلق وقلوبنا تخفق كلما رأينا أسماك القرش تتلاعب من حول السفينة في أسراب تعد بالعشرات ... كانت تظهر دائمًا كلما اشتدت الرياح وعلت الأمواج، فتبدو لنا وكأنها نمور بحرية تقفز من قلب الموج في قوس منتظم ثم تعود لتغطس في صخب المياه من جديد، كانت تتبع السفينة أينما ذهبت... ويظل القرش مستندًا إلى السياج لا تفارق عيناه سلك الصنارة الطويل الملتف حول أسطوانة الونش في المؤخرة، وكلما اشتد بنا القلق وطال الزمن ازدادت سرعة سمك القرش في المياه الصاخبة، فإذا بها تسبق السفينة وتدور حولها سربًا وراء سرب دون أن تقترب من الصنارة، وغالبًا ما كانت الأسماك تأكل الطُّعم لتترك الصنارة عارية، وقتها... كان غضب القرش يتحول إلى زمجرة هادرة وهو يطل على المياه صارخًا:

«يانا يا نت يا ازرق يا لئيم... أكلت الطعم المرة دي تبقي غلبتني... لكن انا حاغلبك والتار بينا بايت... وحق الموج ومن سيره لاصطادك ولو فضلت العمر مستني!!».

ويصمت القرش ويضطرب صدره مع اضطراب الموج من حولنا، ويصدح صوته في فضاء البحر الواسع:

«يا ازرق يا جبان... يا ازرق ... يا جباااان!».

كان يبدو لنا في ذلك الوقت كسمكة تحولت إلى إنسان، وكنا نحبس أنفاسنا ونحن نرقبه من بعيد وصوته القوي يملأ آذاننا ويدفع الدماء في قلوبنا ويملؤها بالحماس والرهبة والترقب، ويظل بالساعات وهو يحملق في الموج صامتًا وصنارته تتأرجح بجواره، ونظل ندور من حوله متهامسين، ويسأل بعضنا

البعض متي تعود أسماك القرش إلى الظهور؟ وفي أية مياه؟ كنا دائمًا نستعد مع اللهفة والقلق للانتظار من جديد!!

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه وصخبه ... وهكذا امتد بنا الانتظار حتى حدث ما حدث، وصمت القرش صمت البحر الآسن من حولنا، وراح يرقب سطح المياه ويشم الهواء بأنفه، ونحن متناثرون من حوله نلعق الزمن بقلق وقد تمزقت ملابسنا وتشققت شفاهنا، وتورمت أقدامنا ولم يعد أمامنا سوي الانتظار... فلو اصطادت صنارة القرش لشربنا دماء السمكة وارتوينا وأكلنا لحمها وشبعنا... وتجدد الأمل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 3 –

هكذا عرفناه وهكذا أحبناه وصدقناه وألفنا حديثه وصخبه... ولطالما جلسنا إليه في الأمسيات الدافئة فوق سطح السفينة أو في أعماق عنبر من عنابرها ونحن نستمع إليه ونستحلب كلماته بآذاننا... طوال أعوام لا يستطيع أحدنا أن يعرف عددها ونحن نرقب حماسه ولهفته وانتظاره... وما من رحلة انتهت إلا وازداد شوقه إلى الرحيل من جديد، وما من مرة رسونا فيها إلى شاطئ إلا واستعجل الإبحار بنشاط ولهفة وهو يعد العدة ويجهز الأسلاك واللحم الأبيض ويطمئن على سلامة صنارته التي لا يستطيع صنعها إلا هو..

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه، وهكذا التقي به كل منا ونحن نصعد سلم السفينة بعد طول شوق وانتظار، عندما يطالعنا وجهه الأسمر الداكن من خلف السياج، وتخترق نظراته العين عند أول لقاء، وتأسر بسمته كل القلوب..

ويمد القرش إلى القادم منا كفًّا غليظة الأصابع صلبة الملمس وكأنها صنعت من معدن تسري فيه الدماء، ويطالعنا شاربه الكث الذي ينتشر على جانبي وجهه ككفين صغيرين بعشرات الأصابع الرمادية، يتربع فوقه أنف أفطس واسع الفتحات، وفمه يبدو كخط رفيع يمتد أسفل الشفة العليا من الأذن إلى الأذن، تعلو وجهه جبهة تنزلق في انحدار شديد الميل، ينتهي بجدارين صغيرين من الشعر الكثيف يظللان عينيه، وتهتز نفوسنا بالدهشة العارمة عندما نكتشف أن رأسه كرأس سمكة القرش سواء بسواء، ونسمع حفيف الهواء في شهيقه وزفيره، ونرتج لنظرات عينيه الثاقبة!

وأيًّا كان القادم منا فلا بد أن يتأرجح به سلم السفينة المعلق، ولا بد أن تزل قدمه أو يفلت الحبل من يده أو يتطوح جسده، ولابد أن تنقذه صيحة القرش أو ترفعه الكف الصلبة من فوق السياج، ثم يدوي في الآذان صوته الهادر: «وانت طالع السلم تخلي عينك دايمًا على الحبل وإيدك ثابتة!».

ولا يصبح الواحد منا في حاجة إلى مصافحته، فلا بد أن تظل يده أسيرة أصابع القرش القوية، وقبل أن يفتح فمه يملأ الصوت العريض أذنيه: «أنا القرش!».

... وهكذا تعودنا جميعًا أن نناديه دون أن نقول له يا باشريس، رغم أنه باشريس السفينة وكبير البحارة فيها ... ولم يعرف أحدنا اسمه الحقيقي، ولا يدري أحدنا ما إذا كان اسمه هو القرش حقًّا أم أنها تسمية أطلقت عليه وارتضاها هو لنفسه.

وإذا كان يوم الرحيل هو أسعد الأيام، فسعادتنا بليالي القرش وحديثه كانت تقف وحدها فوق قمة شامخة من قمم إحساسنا الوحشي بالحياة.. ممرات

السفينة وسحابات الصهد المتصاعدة من غرفة الآلات، الهدير الدائم الدائب الذي يتحول إلى جزء من الصمت والذي تبدو الحياة بدونه على سطح السفينة وكأنها قد توقفت عن النبض... تعجل الدقائق طوال اليوم استعدادًا لساعة العشاء، وعاصفة القرش الصوتية وصخبه وضجيجه وحديث الرجال معه... امتلاء الأفواه بالطعام والكلام، ولا يأكل القرش من طبق واحد، بل يلتقط طعامه من طبق هذا وطبق ذاك... يضعه في فمه ويبتلعه دون مضغ، ويضرب رجلًا على ظهره ويسب آخر ألقي عليه سؤالًا، حتى إذا جاء حديث الصيد تغيرت النبرة واحتد الصوت وبرقت العيون..

«اللي ياكل لحم القرش مرة ما ينساهوش طول العمر!».

ويصرخ رجل ملأ جوفه بالخمر:

«وهو لحم القرش ينفع مزة يا قرش؟!».

ولا يستجيب القرش للهزار وقت الحديث عن الصيد أبدًا: «بدل ما تشرب تعالي اعلمك... القرش كوم وسمك البحر كله كوم!».

«القرش الأزرق ولا الحوت الأبيض يا باشريس؟».

«القرش ملك الميه!».

ويصيح آخر متسائلًا:

«المركب ما بتروحش مية الحيتان ليه؟!».

«الحوت زي الفيل... جتة من غير مخ، وأيها عيل يقدر يركبه!».

ويصيح ثالث من آخر العنبر أو من طرف السطح: «قالوا في المينا القرش الأزرق جبان وطري!».

«القرش الأزرق غول الميه!».

«بيقولو إنه مالي البحر هناك!».

«القرش لئيم ولازم لؤمك يغلبه!».

«وإذا ما كانش فيه لحم أبيض ... نصطاده ازاي؟».

«لف الصنارة بالقطن يهبش فيها ان كان جعان!».

«القطن مالوش ريحة!».

لو جاع القرش ما يشمش، وتبقي عينيه كلوبات!».

«بيقولوا ان ميته غويطة... غويطة!».

«إذا قابلته في بحر عالي حرص منه، وإذا مسكته في ميه غويطة حايتمكن منك!».

«وإذا الريح شد بالليل؟».

«إزعق.. إزعق تاني بالحيل يخاف منك!».

«وإذا البحر على والموج كبر؟».

«تشد الواير وتطمن له، وإذا الصنارة غمزت ما تقربش لوحدك، وإذا اتمكنت منه اضرب بالبلطة بين عينيه... هنا.. هنا. هنا تمام تجيب أجله!».

الفم الواسع والأنف الأفطس والعينان البراقتان والجبهة المنحدرة وحديث المساء فوق سطح السفينة أو في أعماق عنبر من عنابرها... وجلسة القرش فوق كومة الحبال تحت النجوم اللامعة والرجال من حوله ينصتون.. وزجاجة الخمر التي إذا ما رفعها القرش إلى شفتيه فعل ذلك بكلتا يديه محتضنها مقبلًا فاها في رفق حينًا وفي قسوة حينًا آخر... وحديث الصيد والرحلات الطويلة وعشق البحر وهدير الأمواج... وأسماك القرش المتلاعبة من حولنا... وصوت الآلات يأتي من الأعماق كالقلب المنتظم... ويقول القرش كلما صمتنا قليلًا وران هدير الآلات علينا: «من غير المكَن مش ممكن نمشي!».

ومياه البحر وهي تلعق الجدران في رفق حينًا وفي وحشية حينا آخر، وصيحات القرش في قلب الريح والسلك الملتف حول أسطوانة الونش الممتد عبر المؤخرة إلى حيث مياه البحر الواسع، والمصباح الهائل الذي يصب على سطح المياه ضوءه ليجذب بالنور الأسماك الهائجة: «الكشاف بيسحب نور كتير يا قرش!».

ويأتي صوته عبر الليل كنبي يرسي تعاليمه: «من غير النور السمك ما يظهرش، والقرش يهرب منك في الضلمة!».

والرجال المتناثرون هنا وهناك في صمت وانتظار وقد تسمرت عيونهم في بقعة الضوء المتوهج بزبد الموج الأبيض، ووجه القرش الداكن في الظلمة، والإحساس الغامر بالبهجة، وصوته يسري إلى الآذان ليحكي قصة القرش الأزرق... وإذا ظلت السفينة تجوب المياه والبحار وتعبر المحيطات وتصارع العواصف والأنواء فنحن في أمان ما دام القرش معنا، فلم يسمع أحد أن هناك موجًا تغلب على سفينته، أو ريحًا دفعتها إلى حيث لا يريد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

– 4 –

... وإذا قال القرش إن عاصفة ستهب فلا بد أن تهب العاصفة... وإذا قال إن الموج سيعلو فلا بد أن يعلو الموج ويزمجر وهو ينهش جدران السفينة ويتكسر على جوانبها... وإذا أصاب بعضنا القلق صاح فيه القرش منذرًا: «البحر كبير... وعلشان تركبه لازم تكون أكبر منه!».

والنظرة من عينيه كانت كفيلة باقتحام النفس ومعرفة خباياها...

«وإذا خفت من البحر ركبك الموج وطواك ونهش القرش لحمك!».

وإذا عاد الاطمئنان إلى النفوس كان القرش هو ركيزته... وكم جلسنا نرقبه وقت الحديث عن العاصفة مبهورين، عندما يعمق صوته وتلمع عيناه بذلك البريق الأخاذ، عندما ينظر إلى الموج الصاخب فيحدثه وكأنه يروضه!

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه... وهكذا كنا قبل أن تهب العاصفة... وهكذا أصبحنا بعد أن هبت وذهبت معها بكل شيء لتتركنا مجرد حطام عائم في بحر بلا سماء ولا نجوم ولا شمس، ننتظر الأمل في القرش وصيد القرش... وهكذا أصبح علينا أن ننتظر معه طوال زمن لا يعرف أحدنا طوله إلا بمقدار ما تطول ذقوننا وتسترسل شعورنا... ثم راح البعض منا يحسب الزمن بعدد مرات شهيقه وزفيره!

ولقد كان القرش يعلم في تلك الليلة أن العاصفة ستهب حتمًا... أنبأته السماء الملبدة ولسع الرياح التي كانت تلفح وجوهنا ونحن جالسون على السطح نستمع إليه... كان يتوقف بين الحين والحين وهو يطيل النظر إلى السماء ثم يهبط بعينيه ليمسح سطح البحر بنظره وهو يتمتم: «النوة الليلة نازلة جامد... والبحر حايكبر!».

وننهض إلى السياج لنرقب أسماك القرش وهي تتقافز من حول السفينة، ثم يصيح أحدنا وكأنه يقطع بصيحته قطعة من قلبه: «لكن القرش ما بياكلش الطعم ليه... ليه الصنارة مش بتغمز؟!».

ويرد القرش في صوت الواثق:

«لسه... لسه مش دلوقت!».

ويعود ليحملق في وجوهنا ثم يقول منذرًا:

«البحر حا يعلي والموج حايكبر... حايكبر قوي!».

ويرفع رأسه في الهواء كسهم مشرع، ويغمض عينيه ويشم الرياح بفتحتي أنفه الواسعتين حتى يمتلئ صدره بالهواء، ثم يردد في صوت كالصراخ

المكتوم: «الريحة دي أنا عارفها... شموا معايا تعرفوها زيي!».

ويطفو القلق على وجهه ثم تبتلعه ملامحه في ابتسامة واسعة... وينهض من مكانه ليعبر المؤخرة حتى السياج الخلفي، وينتصب واقفًا هناك وهو ينظر إلى البحر ثم يصيح وذراعاه مشرعتان في الهواء: «الليلة ليلتك يا أزرق... الليلة ليلتك أنا عارف ريحتك ... ولو غلبتني برضه لازم حاييجي يوم يتعلموا واغلبك... وحق من سير دي الريح لاغلبك، وحق من علّا الموج لاغلبك!».

وتأتي علينا لحظات يمتصنا فيها حديث القرش ونبرات صوته حتى تنخلع قلوبنا بالرهبة، وتأتي عليه لحظات يزمجر في وجوهنا بيديه وقدميه وعينيه وهو يصرخ فينا: «لكن حتى لو الصنارة غمزت... مين حيصطاده منكم معايا؟!».

ويعم الصمت ونحن نرقبه فيزداد هياجه:

«واحد لوحده ما يقدرش عليه... الضربة من ديله تهد مركب بحالها... والخبطة من راسه تجيب الأجل ولو كان الراجل جبل!!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 5 –

وتملأ آذاننا زمجرة الموج وصفير الرياح وصرخات البحر الوحشية، ويشعل البعض سجائر تتوهج في الظلام كنجوم كابية في سماء صدئة، ويعذبنا تأنيب الضمير فنغرق عذابنا في الخمر، ويأتينا صوت القرش عميقًا خافتًا: «لازم تتعلموا صيد القروش... اللي يصطاد القرش يبقي اصطاد البحر بحاله!».

ولا بد أن يأتيه صوت منا:

«البركة فيك يا قرش!».

ولا بد أن تحتد الزمجرة ويشتد صياح القرش:

«البحر مالوش كبير!!».

ونفرغ كئوسنا ونحن ننهض متمتمين:

«وهو فيه بحر أكبر منك؟!!».

ويأتينا الرد حاسمًا:

«البحر مالوش كبير!!».

ويتمتم أحدنا وهو يتثاءب:

«وهو ده معقول؟! وهو ده معقول!».

«ولو اصطدتوا القرش تبقوا اصطدتوا البحر بحاله!!».

وكان يقف وسط السطح عاري الرأس لامع العينين ممتد القامة: «بالكم القرش حياكل الطعم؟! أبدًا... ده حياكلكم انتم!».

ثم يضرب سطح السفينة بقدمه صارخًا:

«لكن القرش مياكلش لحم منتن!!».

هكذا عرفناه وهكذا أحببناه وصدقناه وألفنا حديثه وغضبه، وهكذا كانت ليالي القرش تنتهي لنأوي بعدها إلى أسرَّتنا وكبائننا وكل منا يمني النفس بالصيد العظيم، ويأتينا صوت القرش عبر ممرات السفينة زاعقًا: «البحر مالوش كبير!».. فنبتسم جميعًا في اطمئنان واثق، فلم يسمع أحدنا أن سمكة قد غلبته، أو أن موجًا قد تغلب على سفينته، أو ريحًا دفعتها إلى حيث لا يريد.. وهكذا كان الخدر يطوينا في كل ليلة إلا تلك الليلة التي بدأت ولم نر لها نهاية.. ووجدنا أنفسنا ونحن متناثرون فوق حطام عائم في بحر مجهول يبدو لنا بلا شاطئ!

أخذ صياح القرش يتردد في فضاء البحر كالريح العاتية: «النوة جامدة.. والريحة دي أنا عارفها.. عارفها!!».

هكذا راح يردد في تلك الليلة فتحمل الرياح الباردة صوته إلى بعيد، وقمم الأمواج تتعالي من حولنا، وزمجرة البحر تملأ فضاء الكون كوحش جائع أطلق من عقاله، وسمك القرش يبدو في جوف الظلام وقد برزت رءوسه في عمود الضوء الذي يصبُّه المصباح الكبير، والقرش جالس فوق كومة الحبال وقد اعتراه الصمت وهو يحملق في الفضاء المظلم من حولنا، والسفينة تترنح فوق السطح الصاخب وهي تئن تحت ضربات الموج الموجعة.. واهتز سلك الصنارة وارتعش رعشات سريعة فخفقت قلوبنا وحبسنا أنفاسنا وتعلقت عيوننا بدائرة الضوء الباهر، ثم نهض القرش وأدار الونش ليسحب الصنارة في بطء، ومضت الدقائق وقلوبنا تدق ورذاذ الموج يغرق كل شيء حتى ابتلت ملابسنا ونفذت المياه إلى أجسادنا...وعندما ظهرت الصنارة كانت عارية تلمع في ضوء المصباح بعد أن أكل القرش لحمها الأبيض، وقبل أن ينطق أحدنا بكلمة ترنحت السفينة ومالت على جانبها فانزلقت أقدامنا وكاد بعضنا يسقط في المياه وارتفعت السفينة فوق موجة ثم هوت على سفحها لترتطم بالمياه الهائجة... وارتجت من تحتنا بعنف وغاصت مقدمتها في قلب موجة هاجمتها وأغرقتنا بزبدها، ثم انحسرت الموجة لتدوي في الظلام صرخة رجل أصابه الهلع: «الدفة...الدفة انخلعت.. الدفة يا قرش!».

هاجمنا الذعر بكل عنفوانه، وتمايلت أجسادنا وترنحت عيوننا تتشبث بالقرش وقد أصبحت السفينة طعمًا للرياح والأمواج بعد أن كسرت دفتها وابتلعها الموج في أعماقه...هرولت الأقدام وتعالت صيحات القرش وهي تأمر الرجال بالحركة هنا أو هناك...وأخذت زمجرة الأمواج تشتد، وهبوب الرياح يدفع بمياه البحر في جبال كانت تتتالي لتضرب السفينة بعنف وتغطيها حينًا ثم تنحسر عنها لتعلو في الظلام صرخات القرش: «كل راجل يثبت مكانه... القرش في الميه جعان والليلة ليلته!».

توقفت الآلات في انتظار الغيب المجهول... ثم دوت صرخة أخري انخلعت لها القلوب فهرع البعض إلى قوارب النجاة صارخين: «المركب بتغرق... المركب انفتحت يا قرش!».

ولاحقتهم صرخات القرش الغاضبة:

«ارجع يا بحري إنت وهوه.. الميه عالية والمراكب عايمة!».

كانت الأمواج قد مزقت جانب السفينة الأيمن حيث رصيد الوقود الذي فاحت في الجو رائحته النفاذة وحملته الأمواج فوق سطحها لتغرقنا به وتلطخ وجوهنا وملابسنا بسواده، وسبحت صيحات القرش في كل مكان تأمر وتحذر،

فوق السفينة وفي جوفها وممراتها... كانت السفينة قد مالت على جانبها ميلًا شديدًا وأصبحت هدفًا للموج الثائر المزمجر في وحشية... وفاحت في الجو تلك الرائحة التي تنبئ بالخطر الشديد، وركب الخوف قلوب البعض فألقوا بقارب نجاة إلى المياه وقفزوا إليه... وحملت الرياح صوت القرش صارخًا: «ارجعوا يا رجاااالة... الميه عالية والنوة شادة والريح الليلة غدار!!».

ورأيناهم كالظل يبتعدون عن السفينة في هلع تحملهم أمواج مزغردة في الظلام... وعاد القرش يصرخ فيهم وقد تدلي جسده من فوق السياج: «ارجعوا يا رجاالة ... المية مليانة بالقرش، السمك في البحر العالي بيبقي جعان!».

واندفع القرش نحو المصباح الكبير فصوبه نحو القارب الذي بدا وسط دائرة الضوء شديد اللمعان، وجاءنا الرد صرخة نفذت كالخنجر المنغرس وسط الصدر تمامًا... وبدت أجساد الرجال في القارب كالدمي تتقاذفها أنواء مفترسة، كان القارب يتلاعب بهم وقد فقدوا السيطرة عليه تمامًا والرياح والأمواج تحمله إلى بعيد وتغوص به في قلب الظلام... وخفت ضوء المصباح مع نفاد الوقود وعاد القرش إلى الصراخ: «واحد لازم يقعد على الدفة.. إمسك المجداف بإيدك وسنانك وقسموا بعض يمين وشمال. ومتخافش من الموج واوزن القارب أحسن الموج يغلبك!».

وانطفأ المصباح عندما انقضَّت عليه موجة حملته وهي تزغرد بصوت كظيم، وعندما انحسرت مياه الموجة كان القرش لا يزال متشبثًا بالسياج يحملق في قلب الظلام، وقد اربد بالغضب وهو يتمتم بصوت غليظ: «مفيش فايدة ... غلبهم الموج ونهش القرش لحمهم!».

وجاءنا الرد صرخة نفذت كالخنجر المنغرس وسط الصدر تمامًا... صرخة ثاقبة ممزقة مذعورة وكأن صاحبها قد أفزعته رؤية الشيطان نفسه، وعاد القرش يردد: «نهشه ... نهشه الغدار في الضلمة!!».

وكان منا من أدار وجهه... ومنا من تسمرت عيناه وهو يحملق في الظلام حيث شبح الجسد الطائر في الهواء وفم القرش الدامي والموج يبتلع كل شيء.. وازداد ميل السفينة وهي تئن بصوت ممزق، وتكاثف الظلام، ودوت في الفضاء قرقعة هائلة كأنها انفجار، وصرخ القرش بكل صوته: «نام على وشك يا بحري إنت وهو... الصاري اتقلع يا رجاااالة... الصاااري اتقلع والريح حاتاخده والموج حايشيله والمركب حاتفضل عايمة ولازم نركب البحر ونكبر عليه!».

وهوي الصاري الهائل بكل ثقله فوق السطح مهشمًا غرفة القيادة والبوصلة، وعندما ارتطم بالسطح أنَّت السفينة أنينًا كالبكاء وسكن الصاري لثوان ثم بدأ

يتدحرج بأسلاكه وحباله وأعلامه نحو المياه، ثم حملته الأمواج وابتلعه الظلام... وزغردت الرياح وأخذت الأمواج تبتلع ذواتها، وأصبحنا نتشبث بسطح سفينة نفد وقودها وابتلعته مياه البحر بعد أن مزقت الأمواج جوانبها، واقتلعت صواريها، ودمرت غرفة قيادتها، وأتلفت بوصلتها...

وذهبت العاصفة لتتركنا ونحن راقدون فوق السطح نحملق في سماء ملبدة بغيوم حجبت عنا الشمس والنجوم، وابتلع الفضاء كل ريح، وأصبح البحر آسنًا تنبعث منه رائحة كالعفن ... ولا يدري أحدنا كم من الوقت مضي، اختلط الليل بالنهار في كون داكن اللون، ونفد الطعام وشحت مياه الشرب. وأصبح أملنا الوحيد في الحياة أن يصطاد القرش... فلو اصطاد لشربنا الدم وارتوينا، وأكلنا اللحم وشبعنا، وتجدد الأمل!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 6 –

... وأصبح من العسير علينا أن نحدد الزمن أو نحسبه إلا بمقدار ما تطول ذقوننا وتسترسل شعورنا... غابت أذهاننا في ضباب حالك والزمن يمضي بنا متشابه الضوء والملامح وكأننا عبرنا الدنيا إلى محيط الأبدية... تناثرنا من حول القرش بخرقنا وشفاهنا المتشققة ودمائنا النازفة ونحن نرقبه في جلسته الصامتة بالساعات، وعيناه تحملقان في مياه البحر دون أن يطرف له جفن أو تبدر عنه حركة... وكان يكفي أن يسأله أحدنا سؤالًا حتى يأتينا منه الجواب حاسمًا هادئ الصوت: «الساعة دلوقت تطلع لها أربعة بعد الضهر، والنهاردة الخامس وبكرة ندخل في سادس يوم!».

ويطول بنا الصمت لساعات، ثم يأتينا صوته وكأنه ينبئنا بأننا لا نزال نحيا: «مش ممكن كل السما تسوي بعضها... فيه سحابة بيضة هناك، تقدر نشوفها لو كنت عايز... لونها يقول لك إحنا إمتي وكنا فين!».

وتتمسح عيوننا بالصنارة المعلقة في الهواء بلا طعم، ونلوك في صدورنا أملًا كان يخبو شهيقًا بعد زفير... وشح الطعام في السفينة وأصبح نصيب كل منا حبة واحدة من البطاطس كنا موقنين أنها ستصبح في الغد لكل اثنين، وتناقصت مياه الشرب فأصبح الحصول على رشفة منها كنزًا لا تعادله كنوز الأرض... وكلما أنبأنا القرش أن يومًا قد مضي بدت لنا الحياة أملًا بعيد التحقيق، وتخشب كل منا في رقدته وكأنه يرقد في تابوت... وكان صوته يأتينا بين الحين والحين متمتمًا: «القرش الأزرق. لو اصطدناه نبقي اصطدنا البحر بحاله ... ونلقي البر قدامنا!!».

ورد أحدنا على القرش بصوت كالنواح: «مفيش أزرق في الميه!».

وتحرك البعض منا في مكانه، ثم تململنا جميعًا في أماكننا وكأن جملة الرجل قد تحولت إلى ذراع يحركنا... ودفع القرش رأسه واحتد صوته: «القرش الأزرق غول الميه... أنا شفته!».

وهب رجل في مكانه وفي عينيه بريق مخيف: «أنا عمري ما شفته!».

وقال آخر: «ولا انا»... ورد ثالث: «ولا انا»... ورابع: «ولا انا»... واختلطت أصواتنا كالفحيح: «ولا انا... ولا انا ... ولا انا ... أنا ... ولا انا... » كنا جميعًا نردد الكلمات بلا إرادة... وصرخ أحدنا في القرش فجأة: «محدش شاف القرش الأزرق... ولا انت عمرك اصطدته!».

وفززنا جميعًا على أيدينا، وبدأت صرخاتنا تشق صدورنا في وجهه. وجحظت عيوننا بالغضب، واجهنا القرش بنظرات محمومة، وصرخ أحدنا: «إمتي حاتصطاده؟ إمتي حاترمي الصنارة؟!».

وجاءنا صوت القرش هادئًا واثقًا: «لما الريح تشد والموج يعلي!».

ويعوي آخر:

«كذاب يا قرش... إنت عمرك ما اصطدت سمكة!».. وانتفضنا جميعًا عندما صرخ صوت: «فرق علينا اللحم الأبيض!».

«اللحم الأبيض علشان الأزرق اللي جاي في السكة!».

«إرمي الصنارة دلوقت!»..

«السمك الصغير ياكل الطعم... والقرش ما يطلعش إلا في الميه العالية!».

«الأكل خلص والميه فرغت!».

«ناكل كل اربعة حبة بطاطس ونصبر لحد الريح ما تشتد!».

«كذاب... كذاب!»..

صرخها الرجل وهو يقفز نحو القرش والدماء تتساقط من شفتيه المتورمتين في قطرات راحت تتخلل شعر ذقنه... وكانت أظافره قد تحولت إلى مخالب، وأصابعه تقوست وانتفخت رقبته... قفز الرجل قفزته فمال القرش يسارًا وسقط الرجل على وجهه لتهوي كف القرش فوق ظهره كالمطرقة: «الشر ما فيهوش رجا... واللي يبكي زي النسوان الموت في البحر أحسن له!».

وساد الصمت تمامًاولم نعد نسمع سوي أنفاس القرش الغاضبة... وتحول صراخ الرجل إلى نحيب راح يسري في الجو الآسن من حولنا وهو يتمتم: «عطشان... عطشان... عطشان!».

وخفت النحيب ثم تلاشي وعاد الصمت ونحن نرقب عيني الرجل وقد تسمرتا على سطح المياه الراكد، وكانت شفتاه المتشققتان منفرجتين عن لسان شديد البياض... وقال القرش بصوت ينذر بالخطر: «ما تبصش للميه!».

وهمس الرجل في فحيح:

«دي ميه... ميه!».

«ابعد عنيك عن البحر!».

«عطشان. عطشان يا قرش!».

«لو كنت بحري كنت عرفت إنها ملح!».

وأطلق الرجل صرخة دوت في أرجائنا، وارتجف جسده رجفة قفز بعدها إلى المياه، وارتطم جسده بالسطح الآسن وغاص فيه واختفي... وتنهد القرش

بصوت حزين: «لو سمع الكلام مكانش راح!».

وقال أحدنا بصوت باك:

«وحتي لو اصطدنا حانشرب منين؟!».

«نشرب دمه!».

«دم؟».

«ولازم الريح تجمد!».

«ميه!».

«ولازم البحر يعلي!».

«الدم ما يرويش يا قرش!».

«ولازم الموج يشخشخ!».

«والبر؟ إمتي نوصل البر؟!».

«البر قريب... أنا شامم ريحته!».

«فين البر يا قرش؟!».

جحظت عيوننا وصرخ أحدنا:

«فين البر؟ البر فين يا قرش؟!».

«البر بعيد علينا... ».

«إنت قلت انا شامم ريحته؟».

«الريحة في البحر زي الصوت... الميه تشيلها!».

«الراجل غطس ما قبش تاني!».

«الريح جاي قريب!».

«البر فين يا قرش يا كذاب؟ إنت عمرك ما اصطدت ولا عمرك حاتصطاد».

وقفز أحدنا فوق القرش وهو يعوي، وبدأت صرخاتنا تتعارك مع عراك الرجلين اللذين توسطا السطح الخلفي... راح كل منا يصرخ وهو في مكانه، وكلما اشتد العراك اشتد صراخنا واشتد تساقط الدماء من شفاهنا... تدحرج الرجلان فوق الأرض فازدادت حلقتنا ضيقًا وتقاربت أصواتنا وامتزجت فوق رأسيهما، وسرعان ما تهاوي الرجل ونهض القرش واقفًا وهو يمسك بتلابيبه

وينهال عليه صفعًا وهو يصيح صيحات حادة أسكتتنا وقهرتنا: «قلنا الشر ما يجيبش رجا.... إهدي وروق وخد دي علشان تتعلم إزاي تغطي بطنك وانت بتتعارك. وإذا ضربت تضرب في المليان، وبلاش صريخ زي النسوان، وبدل ما تضربني خلي دراعك للقرش الأزرق... ارفع لي دماغك وبص في عيني واملا صدرك بالهوا تشم الريح جاي من هناك... الريح.... أنا شامم ريحته... وصوت السمك وهو بيقب ويغطس مع الموج ... بص للسما يا بحري تشوف المطر جاي لك من هناك... الريح آهوه... الريح وصلت والموج حايعلي والبر قرب!».

كان جسد الرجل مكومًا عند قدمي القرش وقد تحولت صرخاته إلى أنين... وخفقت صدورنا وقد تعلقت عيوننا بجسد القرش المنتصب وسط السطح كالوتد وهو يحملق في الأفق البعيد... وعندما صاح هذه المرة ردد الفضاء صدي صيحته: «صوتك وصل لي يا أزرق... صوتك وصل!»..

تحاملنا، ودهمنا إحساس مريع بالخوف فتراجع البعض منا: «أنا سامعك... أنا هنا ومستنيك!»..

وعندما ارتد إلينا صدي الصوت صرخ أحدنا في جنون: «الريح غسلت وشي!»..

كان القرش يقف مكانه وقد شرع رأسه نحو السماء وراح يتشمم الهواء بقوة، وكلما نادي نداء أو قال كلمة ازداد حماسه وانجلي رنين صوته... وبدأنا جميعًا ننظر إلى حيث كان القرش يتطلع... وبدونا جميعًا وقد تهوشت شعورنا وكأننا حيوانات مفترسة... وداعبت الريح شعورنا فتهاوي أحدنا باكيًا: «الريح غسلت وشي»!.

وتثاءب البحر من حولنا وتمطي بملايين الأمواج الصغيرة التي راحت تسبح فوق سطحه في أسراب وكأنها أسماك وليدة.. وعلا نحيب أحدنا عندما سفحت الريح وجوهنا وعلت الأمواج قليلًا... وانجلي الموات فاندفعنا واصطدمنا وصرخنا وتحدثنا ولم نشعر بالدم الذي راح ينثال من شفاهنا ويلطخ صدورنا ... كنا نبكي ونصرخ ونقفز ونضحك ونتحدث ودموعنا تسيل... استند بعضنا إلى السياج وراح يرقب سطح المياه المتلاعب في توسل... واختلط صوت البكاء بالضحكات، وظل القرش في مكانه وهو يتشمم الهواء بفتحتي أنفه الواسعتين دون حركة، صرخنا فيه... وقبلناه... واحتضناه لكنه ظل صامتًا... كانت الحياة تعود إلى الدنيا مع هبوب الرياح وتلاعب الأمواج ومناغاة المياه لحطام السفينة الذي راح يتمايل بنا في هدوء... وعندما صرخ القرش ألجمنا: «وأنا جاهز لك وسامع صوتك... لحمتك عندي وأجلك جاي على إيدي... أنا مستنيك يا ازرق يا للي محدش عرف يصطادك غيري..».

كان القرش يطلق صيحاته في وجه الريح التي حملت لنا أصوات قفزات تعرفها آذاننا جيدًا، قفزات منتظمة دقت لها قلوبنا في فرح غامر.. وبدت لنا أسراب سمك القرش على البعد السحيق وكأنها أسطول منظم يستعد لملاقاتنا.. ومع هبوب الرياح كانت السحب تتكاثف من فوقنا، وإذا الضوء ينحبس ويكاد الظلام أن يسود، وإذا الأمواج تعلو فيملأ الفضاء أنين السفينة المحطمة... واندفع القرش إلى الداخل وعاد صائحًا بصوت مرتجف: «القرش يحب اللون الأبيض والريحة الجامدة»!

ونفذت إلى صدورنا رائحة شديدة النفاذ قبل أن نري قطعة اللحم الهائلة في يد القرش فيسيل لعابنا.. جلس القرش فوق الأرض وجذب إليه الصنارة، وتحولت ساقاه إلى يدين وقدماه إلى كفين فبدا وكأنه كائن غريب بأربع أذرع وأربع أيد... ورأيناه في الضوء الكابي كشبح أسطوري لجني من ساكني الأعماق، وصدرت عنه همهمات سمعناها: «أنا كنت عارف... أنا كنت عارف وقلت لكم!»..

وصاح أحدنا بصوت متشنج وهو يشير إلى مياه البحر: «القرش وصل!»..

والتفتنا نحو أسراب السمك التي راحت تتقافز فوق سطح المياه وأفواهها فاغرة... وكلما علا الموج تمايل الحطام بنا ولعقت المياه جدران السفينة الممزقة... وأصبحنا في انتظار كلمة منه... كانت الصنارة قد اختفت داخل قطعة اللحم وأصابع القرش تعمل بسرعة ودراية، وما لبث أن نهض وهو يحمل الصنارة في يده ويفحص السلك ويخلصه من أسطوانة الونش: «مفيش ونش. فيه رجالة!».

وبرقت عيناه بريقًا مخيفًا، ثم قال في ثبات: «عاوز البلطة.. واللي فيه حيل منكم يقرب مني!!»..

وتدافعنا جميعًا نحو القرش وجاءته البلطة مشرعة... وإذا السلك بين أيدينا قد استماتت عليه أصابعنا. التصقنا والتحمنا وصيحات القرش تنظمنا.. وبدأ الاحمرار يغزو وجوهنا، وتسمرت على السطح أقدامنا، وبرزت عضلات أجسادنا، ونبعت على الجلد قطرات عرق... وإذا الدماء تزغرد في عروقنا ونحن نرقبه عند حافة السياج والصنارة تتلاعب في الهواء وأسماك القرش تدور حول السفينة، ورفع القرش ذراعه في الهواء بالصنارة، وقبل أن يهم بإطلاقها علا في الجو نواح رجل: «يا قرش ... يا قرش!»..

والتفت القرش فإذا الرجل ينوح بصوت ممزق.

«علمنا يا قرش.. علمنا ازاي نصطاد!»...

وساد الصمت إلا من صفير الرياح، ولمعت في عيني القرش نظرة، وافترَّت شفتاه عن ابتسامة توارت عنا وهو يواجه البحر وحده... ودارت الصنارة فوق رأسه دورات أخذت تشتد وتسرع حتى شق صفير الصنارة آذاننا... وعندما أطلقها من يده شقت الهواء كالسهم مبتعدة، وما لبثت أن هوت إلى المياه في دوي ملأ البحر. ساعتها استدار القرش نحونا وصرخ بكل صوته: «الجعان لازم إيده تموت على السلك... والعطشان لازم يفهم ان دم القرش يروي مراكب... واللي عايز يعيش حتمًا حايشم ريحة البر قريبة!!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 7 –

... وإذا الزمن حبل طويل من الانتظار... وإذا الحياة تمضي كحلم فلا جوع ولا عطش... ويشتد هبوب الرياح وارتفاع الأمواج وتلاعب أسماك القرش من حولنا، وتموت أصابعنا قابضة على السلك وتتسمر أقدامنا على سطح السفينة، وإذا رأس القرش عند السياج الخلفي مشرع كصاري سفينة يريد اختراق السحب... وإذا جذبة تنفضنا جميعًا فترتج أبداننا وتتبدد أفكارنا فنصحو على صيحة القرش العالية: «يا أزرق يا لئيم!».

وجذبنا السلك جذبة ارتجت لها أجسادنا وسقط بعضنا فوق الأرض وتمايلت أجسادنا وترنحت لولا كفا القرش وذراعاه وصرخاته: «اجمدوا يا رجالة... الصنارة غمزت وغلبنا الأزرق ملك البحر».

واستقامت أجسادنا وازداد تشبثنا بالسلك وارتجف صوت أحدنا صائحًا بفرح غامر: «غمزت!».

وقال آخر:

«القرش الأزرق!».

وصرخ القرش:

«اثبتوا النهارده يومه وحاتشوفوا دلوقت لونه بيضوي في العتمة!».

وازداد تكاثف السحب وبرق الضوء في السماء وجاءنا صوت الرعد شديد البعد... وأفسحت السحب مكانًا على حافة الشمس فانصب من بينها الضوء في بريق يخطف البصر فوق سطح البحر المعتم... واندفع من جوف المياه رأس سمكة سبح في الهواء دورة ثم عاد ليغطس وسط الموج ساحبًا خلفه جسدًا طويلًا هائلًا متناسقًا ينتهي بذيل كالتاج... وصرخنا في صوت واحد: «الأزرق!».

وكانت قلوبنا تدق بعنف ولون السمكة الأزرق يصبغ في عيوننا كل شيء!!

ولو أن ملاكًا هبط من السماء ليخبرنا أن ما حدث سوف يحدث لما صدقناه، حتى ولو أقسم وتحولت مياه البحر بقسمه إلى ثلوج... بدا لنا الأمر وكأنه حلم بعيد عن التصديق... كانت السمكة الزرقاء تقفز من المياه وقد انغرست الصنارة في فمها فراحت تجذب السلك في عنف كاد يمزق أعضاءنا، وكانت دماء السمكة تسيل فانتشرت في الجو رائحة الدم الدافئة ... وإذا أسراب السمك تندفع نحو الدم الذي غطي سطح البحر من خلفنا، واختلطت أنفاسنا اللاهثة بصرخات القرش الذي كان يجذب السلك من المقدمة دون أن يبدو عليه التعب ... وبدأت لفات السلك تتكوم خلفنا والسمكة تقترب منا وقواها

تزداد عنفًا مترًا بعد آخر... وفتح لنا الموت فمًا شديد الاتساع عندما تكاثرت أسراب السمك الجائعة وقد هيجتها رائحة الدم المراق في مياه البحر... نظرة واحدة إلى طول السمكة وجسدها الهائل السابح في الهواء حينًا الغاطس في المياه حينًا كانت كفيلة ببث الرعب في قلوبنا جميعًا، وكانت زرقتها تلمع في الضوء المنصب عليها من بين السحب وكأنها أضيئت من الداخل بآلاف القناديل السحرية.

كانت مياه البحر قد اصطبغت من حولنا بلون الدم القاني عندما ارتطم رأس السمكة بمؤخرة السفينة، وارتج الحطام بنا فصرخ القرش بصوت ثاقب: «البلطة!».

ثم راح يزعق دون أن تغادر عيناه رأس السمكة الهائل وهي تواجهه.

«أول ما تطلع على ضهر المركب كل الرجالة يبعدوا!».

وبدأت قوانا تهن!

«تقفوا كلكم عند السور ونبعدوا لحد ما أربط السلك كويس ونضمنه!».

وبدأنا جميعًا نخور!

«الشدة دلوقت بألف شدة، والخطوة الأخيرة بالمشوار كله!».

وارتفع ذيل السمكة في الهواء، واشتد جذبها حتى كادت أجسادنا أن تتمزق...

«ومهما قلت لكم محدش يقرب مني... الضربة من ديلها تجيب الأجل!».

وانفلت القرش عَدْوًا حيث لفات السلك فحملها وانطلق نحو قاعدة الصاري المكسور وبدأ يعمل دون أن يكف عن الحديث إلينا.

«ولو جري لي حاجة محدش يخطي خطوة... قتيل أحسن من اتنين!».

ثبت القرش طرف السلك في قاعدة الصاري... وبدأت قبضاتنا تتراخي، وانبعث من حلق السمكة الدامي خوار مخيف...

«الرجالة كلهم يرجعوا لورا!».

كان العرق يتصبب من وجوهنا وصدورنا وأذرعتنا، وكانت أنفاسنا لاهثة متقطعة، وتعلقت عيوننا بعيني السمكة ذات النظرات المخيفة... وارتد الرجل إلى الخلف وقد أرعبته النظرات فاصطدم بالسياج وهوي رأسه نحو المياه ودارت ساقاه في الهواء وسقط جسده في البحر...

«اثبت مكانك يا بحري انت وهو... اثبت مكانك!».

وانقضت أسماك القرش على الجسد الساقط واحتبست صرخة فزعة في جوف الموج، وهدر صوت القرش فوق رءوسنا: «عينه ترعب حيتان، ولونه يخطف القلب!».

ودبت في عروقنا النار فإذا نحن ننقض على السلك في غيظ، وإذا رأس السمكة يتقدم، وإذا جسدها الهائل ينزلق فوق السطح ممددًا بطول المؤخرة، وماتت أيدينا على السلك حتى شده القرش من خلفنا إلى قاعدة الصاري من جديد... كان رأس السمكة كله كجبهة عالية تنحدر من أعلي لتصطدم بجدارين من العظم يظللان عيني وحش شديدتي اللمعان، وهرول البعض لمساعدة القرش وتقهقر الباقون نحو السياج خافقي الصدور... كان الدم يسيل في خيط غليظ من الفم منحدرًا فوق السطح حتى يصب في المياه... وكانت السمكة هادئة شديدة الهدوء عندما تقدم منها القرش وقد تدلت البلطة في يمناه وهو يقول: «أنا كنت عارف إن يومك جاي... وكنت عارف إني حاغلبك ياللي لحمك كله من جتت الضعيف... يا جبار!».

كان الضوء ينصب من بين السحب وقد اتسعت دائرته... وبدا وجه القرش مبتسمًا وعلي شفتيه ابتسامة غريبة، ومن عينيه كان يشع ذلك البريق الأخاذ... وكان القرش يحدث السمكة الملقاة تحت قدميه!

«التار بينا بايت من سنين وسنين.... واللي يصبر عليك يجيب أجلك!».

وتقهقر القرش خطوة إلى الوراء ورفع ذراعه بالبلطة في هدوء وبطء وقال رجل في صوت متوسل: «نساعدك يا قرش؟».

ولم يحول القرش رأسه عن السمكة وهو يقول: «ما يقدرش عليه غيري... مش كل السمك!».

«علمنا!!».

انتفضت السمكة انتفاضة دفعت بالقرش خطوتين إلى الوراء، وتدلت البلطة في يده وأصبحت كأنها امتداد لذراعه... وطال الصمت لثوان قبل أن ينطق القرش: «ياما قلت لكم وما صدقتوش!».

وسرعان ما انطلقت أصواتنا في عراك:

«نتعلم دلوقت يا قرش!».

«ما تروحلهاش وحدك يا باشريس!».

«إنت بتقول إنه غدار!».

«الضربة من ديله تجيب الأجل... إنت قلت كده!».

«والنهشة تطلع بالروح».

«وريحة الدم تهيجه!».

«علمنا... ».

«علمنا يا قرش... علمنا!!».

وخفتت أصواتنا عندما بدأ القرش يتقدم من السمكة خطوة بعد أخري... ران الصمت تمامًا وفاحت في الجو رائحة الدماء النازفة... وانتفض القرش كالوحش وهوي بالبلطة نحو رأس السمكة صارخًا: «يا لئيم... ».

ما كاد الذراع يهوي حتى انتفضت السمكة انتفاضة هائلة وسبح ذيلها في الهواء في قوس وارتطم جسدها بالقرش فانكفأ على وجهه وهوي نصل البلطة لينغرس في السطح!

وندت الصيحات عنا وصرخنا مذعورين، غير أن القرش كان قد أكمل دورة جسده - كالطوق تمامًا - واختطف البلطة وانتصب واقفًا من جديد ... كانت أنفاسه متهدجة وصدره يعلو ويهبط بسرعة، وبرقت عيناه بريقًا عجيبًا... وتقلصت أصابعه فوق ذراع البلطة... وصرخ القرش صرخة أخري وهوت البلطة فوق الرأس تمامًا... وإذا الذيل يطير ساحبًا خلفه الجسد كله... وإذا الرأس يعلو في مواجهة القرش بفم هائل ملأه الدم وصبغ به اللحم الأبيض، وترفع البلطة بصرخة ثالثة ثم تهوي فوق السلك تمامًا... وهوت قلوبنا والسمكة حرة فوق السطح، يبرز ساق الصنارة من فمها كرمح، وارتمي الجسد العملاق فوق السطح ثم انتفض نحو القرش من جديد ... والتحم الجسدان وخارت السمكة وازداد تدفق الدم من فمها، ودارت البلطة في الهواء دورة كاملة، ثم انغرست في الجبهة بين العينين تمامًا... وانفتح فم السمكة كالبئر المليئة بالدماء، وانتفض الجسدان في الهواء... وصرخ القرش صرخة مروعة، وصبغت الدماء جسديهما، والبلطة ترتفع لتهوي، ثم ترتفع لتهوي... وإذا الذيل يرتجف ارتجافة شديدة، ثم يهوي فوق السطح بلا حراك!

وكانت البلطة مغروسة في العنق... تحت الفم تمامًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 8 –

اخترق آذاننا صوت نقر منتظم بدأ يشمل الدنيا بأسرها ... وانتبهنا لنجد أنفسنا محملقين في المنظر المروع أمامنا ... وكانت أسماك القرش قد اختفت من البحر، وخفت الريح وأصبح سطح البحر شديد الصفاء... وبللت أجسادنا قطرات المطر الذي راح ينهمر في سيل كان يغسل الدماء التي صبغت السطح... وأنّت السفينة تحت دفع الرياح أنين من يتحرك في فراشه بعد مرض طويل... ورفعنا رءوسنا نحو السماء وفتحنا أفواهنا لنستقبل المطر... وما لبثت الغيوم أن انقشعت، وتلألأت في السماء شمس شديدة الضياء... وذاب الأسن في حفيف المياه، وشهق أحدنا وهو يصيح:

«الشط... الأرض بانت!!».

وإذا السفينة ترسو بنا على شاطئ لم نره من قبل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شــيء بـلا رائـــحــة

هل رأي أحد منكم ذلك الموت الذي يختطفنا جميعًا واحدًا وراء الآخر؟!

أنا رأيته، وشممت رائحته... وهي ليست رائحة عفنة على أي حال.. إنها رائحة لا تشم، هي ليست عطرة، وليست منفرة... إنها رائحة بلا رائحة!!

وعندما رأيت الموت في ذلك الضحي وذلك اليوم وتلك الليلة، لم أكن أنا قد مت بعد، وكل ما حدث أن السفينة انفجرت فجأة، واندلعت ألسنة النيران فوق سطح المياه فالتهبت... وتمزقت جوانبها الصلبة وكأنها جدران لعبة من الورق، وبجواري تمامًا تناثرت أشلاء صديقي حسن، وطار جسد صبحي في الهواء ثم هوي إلى سطح المياه ككرة قذفت بها قدم حديدية، ووجدت نفسي بعد ذلك داخل مياه البحر.

لم أكن قد مت بعد في ذلك الوقت، لذلك استطعت أن أصعد من جديد إلى سطح المياه... وللحظات قصار خاطفة، انتابني رعب هائل، أين ذراعاي، أين ساقاي وقدماي ويداي ورأسي وعيناي وأذناي و... رأت عيناي جسد كامل البحار وهو يجري فوق السطح والنيران تنهشه، وسمعت أذناي صرخاته التي طوتها الأمواج الرقيقة، فقد كان البحر هادئًا، وسطحه كالزيت... ومن بعيد، رأيت باقي الرجال وهم يقفزون من السفينة صارخين صائحين، فلم يكن هناك وقت، فالسفينة تغرق وتغوص بسرعة في المياه..

وبعد لحظات أو دقائق وربما كانت ساعات - لست أدري - كنت قد ابتعدت عن السفينة بقدر كاف... نعم، إني أتذكر الآن... لقد سبحت ورحت أضرب المياه بذراعي وقدمي كالمجنون، وعندما ابتعدت رأيتها ترقد على جانبها في استسلام، وكانت مدخنتها ترسل سحبًا صغيرة من الدخان، سحبًا متقطعة كأنها تلفظ آخر أنفاسها، وكان الزيت المشتعل يحوطها من كل جانب، وألسنة النيران تحوي أجسادًا كانت تعوي. لا يمكن ... أبدًا... لا يمكن أن أذكر لمن كانت هذه الصرخات وهذا العواء، فالذي لا تعرفونه، والذي أعرفه أنا عن يقين أننا أمام الموت نصبح سواء، صرخاتنا واحدة، وأصواتنا واحدة؛ وخوفنا واحد...

أنا؟! نعم كنت خائفًا وماذا في ذلك؟ كنت خائفًا وكنت أبكي أيضًا وأنا أذكر أبي وأمي وإخوتي وزوجتي وابنتي في ثوان خاطفة... ثم تلاشوا جميعًا وسط اللهب ولم يبق من حقائق حياتي سوي ابنتي!

نعم. هي التي بقيت فقط في ذاكرتي، وذكراها هي التي بعثت بالدمع إلى عيني، وعيناي كانتا ملتهبتين، والزيت المشتعل يأكل ذاته ويختفي، والشمس في السماء تنحدر متفرجة، والسفينة يبتلعها البحر ثم يتجشأ من بعدها

نافورات من الهواء راحت تضرب سطح المياه لدقائق... ثم وجدت نفسي وحيدًا.

لم أكن قد مِتُّ وقتها، كنت لا أزال حيًّا أسبح، وكانت ابنتي هي الأخري قد اختفت من ذاكرتي، فهناك سؤال وسط كل هذا الذي قصصته عليكم راح يلح على ذهني إلحاحًا متصلًا... كيف حدث ما حدث؟!

هذا ما لم أستطع أن أتبينه وسط الضباب الذي كان يغلف عقلي ويضع بيني وبين العالم حاجزًا كثيفا فلم أعد أري ولم أعد أسمع أو أعي شيئًا فقد كنت أقف عند حافة الموت ولا شك، وكنت أعرف ذلك عن يقين، كنت أعرف أني سأموت بعد دقائق فلم ينتبني الذعر أو الخوف، وحلت بي سكينة كتلك التي كانت تحل بروحي عندما تحتويني ذراع أبي في أحيان قليلة من عمري في تلك البلدة الصغيرة التي خرجت منها إلى البحر وكأني أخرج من قمقم مغلق إلى عالم بلا حدود..

ولا بد أني فعلًا كنت أقف على حافة الموت في تلك اللحظات لأن الشمس مالت فجأة وراحت تنحدر نحو الغرب بسرعة وكأنها تنزلق فوق سطح أملس وظلت في انزلاقها هذا حتى لامس قرصها حافة الأفق البعيد... لحظتها توقفت عن الانزلاق وظلت في مكانها للحظات وكأنها تريد أن تنير لي الطريق إلى شيء بعينه... ورأيت على البعد شيئًا يسبح، وحاولت أن أتجه إليه فلم أفلح، كنت أموت في تلك اللحظات بالفعل، أو بمعني أدق كنت قد مِتُّ حقًّا عدا جزء صغير، هو عيناي... في تلك اللحظات، لم أكن أشعر بشيء، كان جسدي قد تحول إلى شيء ملتصق بذاتي، إذا انفصل لم يعد الأمر مهمًّا، وأمام العجز عن الوصول إلى الشيء العائم لم أبذل أي مجهود يذكر، وتحولت عيناي إلى قرص الشمس فوجدته حيث كان ... يلمس حافة الأفق وهو منتظر... ثم راح ينزلق في بطء حزين حتى اختفي جزء منه وراء الأفق، غير أني رأيته يتوقف عن الانزلاق من جديد، وخيل إلى أنه يبتسم... واتجهت عيناي على الفور إلى الشيء العائم، فوجدته يسبح نحوي ويقترب مني... كان قطعة خشب انفصلت عن سفينتي.

تري... من أي مكان في السفينة هذا الجزء؟!

انبثق السؤال في ذهني ثم اختفي وذاب وأنا أري ذراعيَّ تتعلقان به مع كفين في لون الموت الشاحب... وهززت عيني في عجب من أمر هذا الموت، إنه ليس مخيفًا كما كنت أظن، فلست أشعر بشيء على الإطلاق، لا ألم، ولا خوف، ولا رعب، ولا ... لا شيء أبدًا... أبدًا سوي أن عيني كانتا تريان أطراف قطعة الخشب الممزقة..

وتذكرت والدي... ورأيته يبكي.

وكانت أمي في البيت تولول وقد ارتدت السواد..

ولي أخ لم يعلم بعد بموتي، كان لاهيًا مع خطيبته...

وفي إحدي غرف البيت كانت زوجتي ذاهلة محطمة وهي تحتضن ابنتي التي كانت تسأل بإلحاح: بتعيطي ليه يا ماما؟!

من الذي سيرعاها من بعدي؟!

وراحت دموعي تسيل من عيني... ليت الموت يمهلني للحظات حتى أعتذر لها... لكنها لن تفهم شيئًا فهي لا تزال في عمر الحياة، كانت تلعب دائمًا معي وتقول: يا عجوز! ورغم شبابي كانت تسعدني منها هذه الكلمة: بل إني كنت ألاعبها لكي أبتز منها هذه الكلمة... ستسأل يومًا ولا شك عني، وستسأل يومًا آخر... ثم ستنسي ولن تذكر إلا عندما تكبر..

وحدث في تلك اللحظة شيء غريب... أحسست بالدمع ساخنًا على وجهي.

كنت مستلقيًا على ظهري - لست أدري كيف فعلت هذا! - فوق قطعة الخشب... وكان قرص الشمس قد اختفي منذ زمن وحل الظلام دون أن أراه وهو يحل، ولمعت في السماء نجوم بدت قريبة قربًا شديدًا... أهناك سوف «أعيش» بعد ذلك؟!

أم تري كل شيء قد انتهي إلى الأبد؟!

غاظني إحساسي بالدمع فقد دفع إلى حلقي بالعطش تدريجيًّا... وانقشع من حول عقلي ضباب الموت فأحسست بجسدي... كان ظهري يؤلمني كأن أطراف أمواس حادة تشققه ومطارق تدق عظامي فتتحرك أطرافي.. وبدأت في تلك اللحظات أفقد أعصابي، فلماذا تعود الحياة وقد كنت قريبًا من حافة الموت؟!

لم أكن قد مت منذ انفجرت السفينة في الضحي، ولابد أننا في منتصف الليل، وأنفاسي تعود فتتخلل شاربي وتلامس شفتي ساخنة... لابد أن ظهري قد احترق فالألم يزداد لحظة بعد لحظة... والألم ينتشر بقسوة، يزحف ليستولي على الجسد كله فيلتحم بذاتي وأشعر به... أهذا هو ثمن الحياة؟!

لا بد أنها الآن نائمة في حضنها!

ابنتي في أحضان زوجتي..

لكن الدمع هذه المرة استعصي على وتبدد الضباب تمامًا وراح عقلي يعمل في جنون... من الذي سيرعاهما من بعدي؟ ووجدت أنه من الأوفق أن أعيش، ووجدت أني وحدي وسط البحر كله فأين الجميع؟! ورأيت أنوارًا تسبح

في السماء وصوت طائرة يئز في الفضاء ومصباحًا ينير سطح البحر، لكن نوره كان بعيدًا...

وهببت جالسًا وأنا أصرخ..

حدث هذا مرة واحدة ودون إرادة أو تدبير أو وعي بشيء بعينه... وتمايلت قطعة الخشب وسقطت في المياه لكني سبحت بجنون وتعلقت بها من جديد ورحت أصيح وأصرخ لعل من في الطائرة يسمعونني... فهل يسمعون؟!

ومرت الطائرة ورحت - عبثًا - أحاول البحث عن الهدوء في نفسي دون جدوي.

عطشان.

كانت هذه هي الحقيقة الأولي في حياتي في تلك اللحظات..

لم تعد تدهشني كلمة «حياة» كما لم تدهشني من قبل كلمة موت..

اختفت الطائرة وزحف الخوف مع الألم وسيطر على تمامًا..

قتل كثيرون وماتوا وبدأت أري الماضي بوضوح فركبني الرعب فربما كانت ذراع أحدهم تسبح الآن بجواري... العطش يحرق حلقي وصدري ولساني، ونسمة رطبة تهب... وقد ابتعد الموت تمامًا فأنا أعرفه ووقفت على حافته وشممت رائحته وعايشته، ستتزوج ابنتي عندما تكبر وستقول إن أباها كان جواب آفاق تركها وذهب ولم يعد... ستقول أحيانًا إني مجرم فلماذا أتيت بها إلى هذه الدنيا؟ ستحزن زوجتي حينًا ثم تهدأ ثم تستسلم للحياة، وقد تتزوج غيري فالغيظ يأكلني ولا بد أن أعيش..

لست ميتًا، هذا حق فأنا أعرف الموت وهو بلا عذاب ولا غيرة ولا ألم..

حولي فضاء يحويه فضاء والفضاء لا يسمع..

من أين غربت الشمس لأحدد الشرق من الغرب والشمال من الجنوب؟ فالنجوم قد عادت فابتعدت وظللتها سحب خفيفة كانت تتهادي في بطء قاتل. ثم ذهبت الغيوم والسحب وبقيت النجوم مختلطة بعضها بالبعض تتحرك وتذهب وتروح وتجيء فلا تترك على صفحة السماء علامة تهدي... يعود الموت هذه المرة حثيثًا ليجذبني إلى حافته لكني أرفض.

وعلي البعد شبح.. لا..إنه سراب ... بل شبح ... بل سراب... بل شبح سفينة وأضواؤها تقترب... عدت إلى القفز من فوق سطح قطعة الخشب واحتوتني المياه وصرخت لكن يدي لم تترك قطعة الخشب... تبدو لي الحياة على ظهر

السفينة - بالرغم من كل شيء - جميلة، وأجمل ما فيها أن الذين فوقها يتنفسون ويسعون.

متي تغرق هذه السفينة؟!

ضوء ينبثق من فوق سطحها ليستلقي فوق المياه فيزداد الألم فأتأوه ولا أنادي وأذعر وأرتجف ثم أنفجر في صراخ هستيري: أنا هنا فالحقوني..

الضوء الباحث يدور هنا وهناك، يرتفع وينخفض، يسبح يمينًا ويسبح يسارًا، وضوء آخر معه وصوت صفارة السفينة يدوي في فضاء الليل فأرد عليه بصوت مبحوح وصرخة متهالكة وأحس من جديد بدبيب الموت يلحقني فأصرخ رافضًا.

السفينة تمضي وأطراف الضوء تلامس أطرافي لكنها تبتعد مسرعة وهي تصم عن صرخاتي آذان كل من فيها.

هدني اليأس فقد ابتعدت ولا أمل.

لو أبكي!

أمهلني الموت لكن الحياة لم تعطني الفرصة لأعتذر لابنتي فهما نقيضان، عبثًا أن يتفقا..

أراها نائمة وقد تركت أطرافها ملقاة في كل جانب كعادتها ... قبلة واحدة منها ونظرة لزوجتي ولسوف تفهم وتوقن أن لا ذنب لي فيما حدث..

انفجرت السفينة واشتعلت النيران ووجدت نفسي في أحضان الموت فلم أقاوم وأعطتني الشمس فرصة للحياة لكن الحياة ترفضني.

يذهب العطش ومعه الألم وتعود عيناي لتحملقا في السماء وينفصل جسدي من جديد عن ذاتي ويحيط عقلي ضباب كثيف فلا شيء... لا سمع ولا إحساس ولا إرادة غير إرادة الحياة، فقد بدا لي الموت وحشًا يريد التهامي، سالت دموعي لكني لم أحس بسخونتها فوق وجهي وتجمدت أطرافي وحواها الموت وهبت نسمة فتمايلت السماء أمام عيني وأحسست بالظلام يحوطني... ظلام ليس كالظلام... وحافة ليست فيها نيران... والنجوم تقترب وتقترب... والدنيا... وأبي يبكي... وأمي تولول... وأخي لاهٍ عني بحبه... وابنتي تسأل عني..

ولا جواب..

1964

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

خطاب إلى رجل ميت

– 1 –

لا يعنيني أن يصدق أحدكم هذا أولا يصدقه... وستقولون حتمًا إني سكران يهذي... فليكن. غير أن ظنونكم وأفكاركم لن تغير من الحقيقة شيئًا، وهذه هي الحقيقة كما حدثت لي ذات مساء في تلك الجزيرة!

كان المساء قارس البرد، ولم يكن في ميناء الجزيرة سوي سفينتنا، ورغم هذا بدا الميناء ليلتها مشتعلًا بالأضواء والضحكات والصخب، كان الرجال قد ذابوا في الزحام الذي أحاط بنا منذ رفعنا راية الرحيل، وكان أهل الجزيرة يصفقون ويغنون ويرقصون ويقدمون لنا كل ما نطلب بلا مقابل... لم يكن معنا مال، ولم يكن لدينا ما نبادل به، وكان وقت الرحيل يقترب، ولم يبق لنا سوي تلك الليلة!

منذ متي رسونا على شاطئ هذه الجزيرة؟!

لم أكن ليلتها أدري، ولست أدري حتى الآن كم من الزمان مضي علينا هناك، أو لماذا ذهبنا... ومنذ اللحظة الأولي لوصولنا كان كل شيء يبدو لنا غريبًا مثيرًا... كنت إذا وقفت في غرفة القيادة أو تسلقت صاري السفينة، استطعت رؤية الجزيرة بأكملها، كنت أري من مكاني هذا شاطئها الآخر... كانت صغيرة وحيدة، تبدو مثل شيء نسيه صاحبه في فضاء... وكانت بيوتها صغيرة، وشوارعها ضيقة، وحواريها لا تسع أكثر من شخص يمر، وأبوابها واطئة، وساكنوها باهتي الوجوه غريبي اللغة، كانوا يبدون وكأنهم يهمهمون ولا يتحدثون!!

كانت الجزيرة كمدينة مسحورة، كل شيء فيها صغير رقيق كأنه صنع ليصبح لعبة، وكان الليل إذا انتصف ولعبت الخمر برءوسنا رحنا نذرع الشوارع والحواري، ونصيح ونصافح ساكني الأدوار العليا ونحن نسير في الطريق!

في تلك الليلة لم يكن أحدنا ليصدق أن وقت الرحيل قد حان، كان المحيط غاضبًا منذ أيام كثيرة العدد... ربما منذ أسابيع، وربما شهور، وكانت أمواجه تنهش أطراف الجزيرة ليل نهار... وكلما اكفهر الجو وتلبدت السماء بدا المحيط للعين عظيمًا، وأصبح إقلاعنا في مثل تلك الأنواء يعني الموت، فرحنا ننتظر وننتظر، وجاء علينا يوم أحسسنا فيه أن الجزيرة تصغر... وأن أهلها يتكاثرون، وأنها تضيق بنا... وأصبح رحيلنا عنها أمنية من الأماني، ثم أصبحنا نجلس بالساعات فوق سطح السفينة نرقب المحيط من بعيد، ولا نفعل شيئًا سوي الانتظار.

في تلك الأيام كنت قد أنفقت كل ما أملك من مال في ذلك البار الصغير المواجه للميناء، وفي البداية كنا نذهب إلى البار إذا ما حل المساء، وأصبح

ذهابنا إليه مع الأيام كأنه عودة إلى البيوت والزوجات... كان صاحب البار رجلًا لا يعرف الكلام، كان يكفيه أن تطلب منه أي شيء في الدنيا بأية لغة شئتَ، ليفهم، ويلبي... وكأن الرجل لا يعرف معني كلمة: «لا!».

وكانت لي - مثل كل الرجال على السفينة - امرأة... كانت صغيرة دقيقة وكأنها خلقت لتصبح تمثالًا... كانت جميلة الوجه، حائرة العينين، هامسة الحركة... ومنذ الليلة الأولي للقائنا أعطتني كل ما أردت، كان يكفي أن أفكر في شيء أو أرغب فيه حتى تلبي دون كلمة... وبعد أيام اكتشفت أني لا أعرف اسمها، وحيرني الأمر كثيرًا، حيرني ليالي وأنا أسألها عن اسمها فلا تجيبني إلا بتلك الهمهمة الغريبة التي لم أكن أفهمها... ثم نسيت الأمر تمامًا، نسيته عندما بدت لي تلك المرأة ذات ليلة شربت فيها كثيرًا، وكأنها خلقت من مجموع رغباتي!!

وعلمتني الأيام أن أهل الجزيرة كلهم كذلك، ما من شيء طلبه الرجال إلا وجدوه، وعندما نفدت نقودي رحت أسرق من حمولة السفينة وأبيع، كان ابتعادي عنها يبدو لي كأنه ضرب من المستحيل، وما يكاد الليل يأتي حتى تشتعل في جسدي تلك الرغبة المجنونة في لقائها، ويلتهب حلقي بالعطش الرهيب، وترتجف يداي بحثًا عن ذلك الجسد الناعم الدافئ، الذي ما يكاد يدفن نفسه في أحضاني حتى تتحول الدنيا من حولي إلى نغم، ونفد ثمن ما سرقت، فسرقت من جديد، رحت أسرق وأبيع وأسرق وأبيع ثم اكتشفت ذات ليلة أن كل الرجال قد نفدت نقودهم منذ زمن، وأنهم جميعًا يسرقون مثلي... وسرعان ما أصبحت السرقة قانونًا بيننا... ثم بدأت حمولة السفينة تنفد، ولم تهدأ أمواج المحيط، ولم يصف الجو، وظلت السماء ملبدة، والموج ينهش أطراف الجزيرة، والناس يتكاثرون... وأصبح لابد لنا من الإقلاع!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 2 –

كانت الأيام كلما مضت، شحت نقودنا أكثر، وازداد أهل الجزيرة صمتًا، ولم يعد صاحب البار يلبي ما نطلبه قبل أن يأخذ الثمن... وكانت امرأتي كلما طلبت شيئًا رحت أبحث كالمجنون عن شيء أبيعه، ثم أصبحت السفينة كالخراب. وبحثت ذات مساء عن امرأتي فلم أجدها، سألت صاحب البار فهمهم بكلام لم أفهمه... قطعت الشوارع والحواري والأزقة بحثًا عنها دون جدوي، كانت وكأنها تبخرت، وكان الرجال كلهم مثلي، كنا نلتقي في الشوارع وكل منا يهيم على وجهه بحثًا عن امرأته، وكان كل منا يوصي صاحبه بالبحث ... ومضت الأيام لكننا لم نيئس، ظللت ألهث وراء كل امرأة أراها، وظللت أسأل صاحب البار في كل صباح وكل مساء، وأطرق باب البيت الذي آوانا ليالي طوالًا، وأسأل كل من أقابله دون جواب!!

وكان كل الرجال يفعلون مثلي، ولم يعد صاحب البار يؤوينا، وكان أهل الجزيرة يزدادون عددًا وكأنهم يتوالدون كل يوم، وبدأت كالمجنون أصرخ في كل من أقابله سائلًا عن امرأتي دون جدوي، ونما ذقني يوم نمت ذقون الرجال، واستطال شعري يوم استطالت شعورهم... ولم يعد أهل الجزيرة يبتسمون في وجوهنا، ولم يعودوا يردون علينا التحية... وخيل إلى ذات يوم أنهم لا يروننا، وكنا نسير في الشوارع وسط الزحام كالأشباح المخفية، ونفد كل ما لدينا من طعام، وأصبحنا لا نفعل شيئًا سوي الجلوس فوق السطح نرقب الأمواج الثائرة، وقد يطل قرص الشمس بين ركام السحب السوداء، لكنه سرعان ما كان يختفي ليحل محله الظلام والزمهرير وقصف الرعد وزئير الأمواج!

ثم فقدنا عقولنا تمامًا، وانتابنا الجنون ذات مساء عندما صاح أحدنا بأنه سيقتل كل أهل الجزيرة، وأحسست وأنا أعدو وسط الرجال بأن شيئًا في دمائي يحترق، واندفعت وسطهم أحمل في يدي بلطة حادة، وكانت رغبتي الوحيدة أن أعثر على امرأتي كي أقتلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 3 –

بعد ساعة كان غضبنا العظيم قد تحول إلى اليأس، كنا نعود إلى السفينة نجر أذيال الهزيمة كجيش مزقته الأشباح، وكان كل منا ينظر إلى الآخر غير مصدق، ولم يجسر أحدنا على الحديث أو الكلام، فعندما داهمنا الجزيرة وجدنا أهلها في الانتظار... كانوا يقفون أمامنا في كل مكان ذهبنا إليه ولم يكن أحدهم يحمل في يده سلاحًا، ولم يقل أحدهم كلمة ... كل ما فعلوه هو تلك النظرات الغريبة الحادة التي كانت تخترق رءوسنا وتشل أطرافنا وتطفئ نار الغضب في صدورنا..

ظللت أعدو وسط الرجال كالمجنون، كنت أحس بأني فقدت عقلي وكنت أعي ذلك وأعرفه وأرحب به، ولقد كان الجنون عندي أفضل ألف مرة من الجوع، وعندما مررنا برجل كان يأكل رفعت بلطتي في الهواء وهويت بها فوق رأسه، وقفز الرجل من مكانه قفزة صغيرة قصيرة، وهوت البلطة لتنغرس في الأرض وظل الرجل يأكل... رفعت البلطة مرة أخري وهويت بها فقفز تلك القفزة الصغيرة وانكفأت على وجهي وارتطم رأسي بأرض الجزيرة... رفعت البلطة مرة ثالثة وكانت عيناه تنفذان داخل عيني فأيقنت أن لا فائدة... وتدلَّت ذراعي بجوار جسدي، وسمعت في داخلي صوت غضبي ينكسر، فسالت الدموع من عيني وسألت الرجل في توسل:

«ألم ترها؟!».

حملق الرجل في وجهي ولم يقل كلمة... بدا أنه لا يفهم شيئًا.

«ألم ترها؟... ألم تر امرأتي؟!».

ولم يكن هناك ما يمكن أن أقوله، فلم يبد على الرجل أنه يسمع، لم يتحرك، ولم يتكلم، وظل يلتهم طعامه في صمت... وعدت إلى السفينة دون أن أمسح دمعي المنهمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 4 –

كانت السفينة قد أصبحت كالمهجورة... وشحبت وجوهنا واستطالت سِحَنُنا وغارت عيوننا وتاهت نظراتنا... وهجرت فراشي ورحت أهيم في أرجاء السفينة ليل نهار، وكانت ممراتها قد اتسخت، وأحست الفيران بالأمان فراحت ترتع في كل مكان بلا خوف ولا رقيب، وأصبح الهبوط إلى جوف السفينة كالهبوط إلى جوف قبر... واتخذت لنفسي مكانًا بجوار السياج ورحت أرقب الأفق في صمت، كنت جائعًا عطشان مثل كل الرجال... وكانت رؤية قطعة من الخبز كفيلة بأن تسيل لعابي، وكثيرًا ما تشاجر رجلان من أجل قطعة من الجبن... ولم أعد أفكر في البحث عن امرأتي، كان الهبوط إلى الجزيرة معناه مزيد من الشقاء، ثم جاءت أيام منعنا فيها الحراس من مغادرة الميناء، وكانت أصوات أهل الجزيرة تصل إلينا في الليل مع سحابة الضوء التي أصبحت تظلل شوارعهم الضيقة، وفي بعض الأحيان كان يأتيني غناؤهم من بعيد، وكنت كلما سمعت أصواتهم الثاقبة ازدادت في صدري الرغبة في الرحيل كأن شيئًا يطاردني... وكانت أمواج المحيط تشتد علوًّا وزمجرة، ثم علت المياه فاقتحمت حاجز الأمواج واندفعت تلطم جوانب سفينتنا في وحشية، ولا تكف الرياح عن الصفير، وكلما أوغل الليل اشتد بي القلق، كنت أهيم على وجهي في السفينة ويرتطم جسدي الهزيل بأجساد الرجال، ويطاردني ذلك الشيء اللزج الذي كان يبعث في نفسي الخوف... وصرخت ذات مرة ثم أفقت لأجد نفسي محاطًا بالرجال وكنت أبكي... واشتد العذاب بأحد الرجال ذات مساء فحمل بلطته واندفع مغادرًا السفينة وراح يضرب كل من يقابله... لكنه لم يصب أحدًا. وعاد إلينا مع أول أضواء الفجر مهدل الجسد يجرجر قدميه وفي عينيه نظرات تائهة.

ثم قررنا ذات ليلة أن نرحل!

بدا لنا الأمر في البداية مخيفًا رهيبًا لا طاقة لنا على احتماله ... وبدا لنا المحيط كوحش هائج يفغر فاه في انتظارنا... غير أن أحدنا اندفع يرفع فوق الصاري راية الرحيل، فغمرتنا على الفور فرحة صاخبة... كنا نعرف أننا سنواجهه. وكنا نعرف أنه لا يزال غاضبًا، وأن أمواجه تزداد توحشًا، وسماءه تزداد قتامة، وكانت نظرة واحدة نحو الأفق كفيلة ببعث الرعب في قلوب أقوي الرجال وأكثرهم صلابة...

ورغم هذا أحسست بأن جسدي أصبح خفيفًا، ولم أعد جائعًا، ودبت في أوصالي فرحة الخلاص، ورحت أعمل مع الرجال طوال اليوم في حماس... نظفنا الممرات وطاردنا الفيران، وتعالت ضحكاتنا وغسلنا السطح وجهزنا الشراع وقسمنا نوبات العمل... وعندما جاء ذلك المساء كان شديد السواد،

وكانت السفينة مضاءة كعروس، وكان سطحها يشغي بالحركة... أحسست ساعتها كأن حملًا قد اقتلع من داخل صدري، وضحكت مع الرجال وأنا أحلق ذقني، وغسلت جسدي بالمياه، وبدت لي أمواج المحيط مثل عروس أستعد لزفافها، وبدا لي الأفق وكأنه غابة، وكنت كلما سمعت ضحكة رجل أجبت عليها بضحكة أشد صخبًا... كنت أريد أن أضحك، وأن أغني، وأن أرقص إن استطعت!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 5 –

لا يعنيني أن يصدق أحدكم هذا أو لا يصدقه... وستقولون حتما إني سكران يهذي... غير أن ظنونكم وأفكاركم لن تغير من الحقيقة شيئًا، وهذه هي الحقيقة كما حدثت لي في ذلك المساء في تلك الجزيرة!

فكأنما جذبت ضحكاتنا ومرحنا أهل المدينة... وما هي إلا لحظات حتى شاهدتهم يخترقون الشوارع والحواري ويتزاحمون عند باب الميناء وكانوا يحملون المشاعل... وكلما ازدادت ضحكاتنا ازداد تدفقهم، وكلما رأينا جموعهم داخلنا شعور وحشي بالسعادة، وصرخت فيهم من فوق السياج: «كلاب!».

فابتسموا، ثم ضحك أحدهم، ثم تعالت ضحكاتهم مثل شقشقة طيور برية، كانوا يبدون أشد سعادة منا، وأشد حماسًا لرحيلنا... وراحت عيناي تبحثان وسط الجموع عن امرأتي، خطرت ببالي فخطرت لعيني، كانت واقفة هي الأخري وسط الجموع تبتسم... وبدا لي وجهها الصغير كقرص سحري لكوكب هوي إلى الأرض واستقر فوقها مضيئًا، واشتعلت في دمائي تلك الرغبة المجنونة، واشتعل ذهني بحثًا عن شيء أبيعه، صحت بها مناديًا فلوحت بيدها منادية، وتعالت الأصوات من حولي، وصخبت الضحكات، وبدا لي أن كل شيء يبدو معقولًا، وأن ما حدث كان يمكن أن يحدث، وأن رغبتي في الغفران تساوي رغبتي في جسد امرأتي المرتجف وسط الجموع باللهفة... نظرت نحو الرجال على سطح السفينة فوجدتهم جميعًا يتبادلون النظرات، وكلما تلاقت نظراتي بنظرات رجل أغرقت في الضحك أكثر، كنت أرتجف بسعادة غامضة شديدة الغموض، استدرت نحو المحيط وراحت عيناي تحاولان اختراق الأفق المظلم، ملأت صدري بالهواء وأحسست بالرغبة في التحليق، وصاح رجل بجواري في امرأة كانت تغريه بالهبوط: «ليس معي نقود... إني مفلس!».

وصاحت به المرأة بصوت كالموسيقي: «لست أريد شيئًا!».

ارتجف قلبي كزلزال هزني بعنف، ثم صرخت كالمجنون غير مصدق: «إنها تتحدث!».

وتعالت الضحكات والنداءات وعادت المرأة تنادي على الرجل: «لست أريد سواك!».

وعدت أصرخ:

«إنها تتحدث... إنها تقول شيئًا».

غير أن أحدًا لم يسمعني، كان الرجال غارقين في الضحكات وقد تجمعوا حول الرجل وراحوا يدفعونه نحو سلم السفينة ... ارتجف قلبي برعب خفي، وعدت أصرخ فيهم: «إنها تتحدث... إنها تتكلم... إنها تقول شيئًا!».

ودفعني أحدهم بعيدًا وهو يصيح: «وماذا في ذلك؟!».

«إنهم لم يتكلموا من قبل!».

«وماذا في ذلك؟!».

وانزلق الرجل فوق درجات السلم وهوي نحو الرصيف فتلقفته المرأة بين ذراعيها ثم ذابت معه وسط الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 6 –

أصبح مذاق الخمر عظيمًا... وكنت كلما شربت كأسا اشتدت رغبتي في كأس أخري... كنت أطلب، وكان صاحب البار يلبي، وامتلأ المكان بسحابات دخان كثيف. وكان الرجال يضحكون ويأكلون ويشربون في نهم... وبدا لي الأمر وكأنه حلم من تلك الأحلام الخيالية... فقد كان أهل الجزيزة يتحدثون!!

«تعال...».

كانت امرأتي تقف على الرصيف وحدها، وكنت أقف فوق السطح وحدي.

«تعال ... ».

كان الرجال قد اندفعوا يهبطون سلم السفينة في جنون، وكانت صرخاتي تضيع وسط صخبهم وضجيجهم.... كانوا يبدون وكأنهم فقدوا عقولهم، وبدت الميناء مشتعلة بالأضواء والضحكات والصخب، وذاب الرجال في الزحام، وتعالت الأنغام وارتجت أرض الجزيرة بالرقصات... ثم اختفي الجميع وهم يحملون المشاعل من الميناء... وظلت امرأتي واقفة في مكانها وكأنها تسمرت هناك...

«تعال!».

كنت أسمع صوتها كأنه لحن تبعث حلاوته الجنون في دمائي...

«تعاااال!».

أردت الكلام فخرج صوتي صراخًا أو نواحًا أو عويلًا فقد كان الخوف يقهرني:
«ليس معي نقود!».

«لست أريد شيئًا!».

«لم يعد في السفينة شيء نبيعه!».

«لست أريد سواك!».

«إني جائع!».

«عندي من الطعام ما لا يخطر لك ببال!».

«عطشان!».

«سأشتري لك خمرًا لم تذقها في حياتك!».

«جسدي مريض!».

«دواؤك في شفتيَّ!».

«قلبي بارد!».

«سيخفق عندما تقبِّلُني... هل نسيت؟!».

«أنت تتحدثين!».

«كنت أحدثك منذ ولدت!».

«ما اسمك؟!».

«أنت تعرف أني لك!».

«هاجمتنا الفيران بالأمس».

«عندما تعود ستجدها قد اختفت!».

أحسست أني أسبح داخل كرة بلورية قاتمة اللون، كانت قدماي تهبطان السلم دون إرادة، كنت أطيع فإذا بجسدي يسبح في الفضاء إليها... تلقتني بين ذراعيها في وجْد... وكانت عيناها الحائرتان تترددان فوق وجهي، وعندما احتوانا الدفء في البار سقتني كأسًا فأحسست بأوصالي تتجمد، وكلما شربت اشتد التهاب حلقي، وعندما نهضت تبعتها صاغرًا، وعندما احتوتنا الغرفة المظلمة تصاعدت أنفاسها فوق عنقي، أردت عناقها فتصلبت ذراعاي، وعندما قبَّلتها كان لشفتيها طعم الجثث، وعندما طوقت عنقي بذراعيها، أحسست بالوحدة تجثم على صدري كالموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 7 –

لم يعد باقيًا سوي ساعات.

كانت زمجرة الأمواج تهز أرض الجزيرة.

كان ضوء الفجر يبزغ من خلف الأفق رمادي اللون.

وكانت محاولاتي كلها قد باءت بالفشل.

لم أعد أريد..

أزحت المرأة جانبًا، وهززت رأسي في يأس، وجاءني صوتها عبر الظلام: «لم تعد تريدني!».

واستدرت نحو مصدر الصوت كالملسوع، كان صوتها كالعزف على آلة شديدة الرقة عذبة النغم.

«لم أعد أعجبك!».

رحت أبحث بيدي في الهواء عن شيء لا أدريه.

«تعاليَ!».

وأصبح صوتها مثل حية تلتف حول عنقي.

«تعا ا ا ا لي!».

كنت أصرخ ودق قلبي وظللت أتخبط في الظلام... كان جسدي ثقيلًا وكأنه امتلأ بالزئبق، وتحركت المرأة بجواري ولفت جسدها سحابة من الدفء شملتني، ثم لامس جسدها العاري لحم جسدي فارتجفت، وسمعتها تقول وهي تغادرني: «هدك الجوع!».

وانتفضت مغادرًا الفراش وأنا أزمجر...

«ليس معي نقود!».

رحت أبحث في الظلام عن ملابسي.

«لست أريد منك شيئًا!».

كنت أتخبط وأدور حول نفسي...

«لا أحب شيئًا بلا ثمن!».

وسمعت حفيف جسدها يسبح في الهواء...

«لقد أطعمتك!».

«كنت جائعًا!».

«وسقيتك!».

«كنت عطشان!».

«لست أريد سواك!».

واندفعت خارج الغرفة هاربًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 8 –

لم يعد باقيًا سوي دقائق، كانت شوارع الجزيرة قد امتلأت وازدحمت بأهلها، وكان قرص الشمس يسقط من بين السحب داخل عيني، وكانت هي تسير بجواري نحو السفينة لا تقول شيئًا.. دلفت من باب الميناء فجاءتني صيحات الرجال من فوق السطح تناديني... وكان الزحام شديدًا، والأصوات متشابكة، والفرحة تزغرد في عيون الجميع وأصواتهم...

«سوف تعود يومًا!».

«لا... لن أعود!».

«لسوف تعود حتمًا!».

كانت يدها تتسلل إلى ذراعي، وكانت صيحات الرجال من فوق السطح تدوي في أذني كالرعد: «تأخرنا!».

وتعالت الأصوات ودبت الأقدام وكانت المرأة تبدو شديدة الشحوب...

«أنت خائف!».

«ماذا تريدين؟!».

«هل تعود؟!».

«ماذا تريدين؟!».

وامتدت يدها إلى صدرها وأخرجت خطابًا... مددت يدي إلى الخطاب فالتصق بها، وضعته في جيبي فذاب فيه..

«لمن؟!».

«عندما تبحر ستقرأ العنوان!».

«عندما أبحر لن أعود!».

هزت رأسها في ابتسامة ثم ألصقت شفتيها بشفتيَّ... وجذبتني صيحات الرجال إلى أعلي... واشتد زئير الرياح وعندما استدارت السفينة نحو المحيط انقضت علينا الأمواج الشرسة بلا رحمة، لكن الشراع كان مفرودًا في الهواء كجناح طائر أسطوري... وراحت الجزيرة تبتعد وتبتعد ونحن نوغل في الفضاء، يوم ويومان وثلاثة أيام وإذا بالشاطئ لا يبدو لعين... كانت العاصفة تزداد كلما أوغلنا في السير، واختفت الشمس تمامًا، وتذكرت الخطاب ذات ليلة فأخرجته من جيبي، وقعت عيناي على العنوان فارتجفت...

«إلي قبطان «الرغبة»... التي غرقت في المحيط ذات يوم ولم ينج منها أحد!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 9 –

لم أجرؤ على الحديث مع أحد... أعدت الخطاب إلى جيبي وقد شملتني سحابة باردة من الفزع... كان الخطاب إلى رجل ميت، واندب في قلبي ذعر شديد، وعندما خرجت إلى السطح كانت السفينة تصارع أمواجًا عاتية، اندفعت مع الرجال أجذب الحبال وأقفز هنا وهناك، كان الصوت يلاحقني في ذلك الفضاء اللانهائي...

«لسوف تعود حتمًا... لسوف تعود!».

وعندما دوت من قلب السفينة صرخة رجل أيقنت أن النهاية قد جاءت... كان الموج قد حطم جانب السفينة... رحنا نتدافع بجنون لننزح المياه، تلبدت السحب أكثر، وصرخ رجل من فوق الصاري مذعورًا:

«جبال الثلج!».

وكانت جبال الثلج تتهادي غير بعيدة عنا، كانت تسبح مع الموج كالموت، ودوت في أرجاء السفينة صرخة أخري، وتعالت الصيحات فقد انفتح جانب السفينة الآخر... وعندما ارتج السطح تحت أقدامنا أيقنت أن الهلاك آت لا ريب فيه... تحولت السفينة إلى أشلاء على سطح الجبل السابح، وراح الرجال يقفزون إلى المياه في ذعر... وتعالت صرخاتنا وسط الأمواج المزمجرة، سبحت نحو قطعة طافية وتعلقت بها ... لست أدري كم مضي من الزمن، فعندما أفقت كنت وحدي راقدًا فوق قطعة الخشب السابحة فوق سطح كالزيت ... كانت العاصفة قد ولت، واختفت السحب، وأطل قرص الشمس دافئًا فوق المياه التي بدت لعيني كالبلور... نظرت حولي فلم أجد سوي فضاء، تذكرت الخطاب فمددت يدي إلى جيبي في لهفة...

لكني لم أجده!!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رقــصـــة الصـــبـــاح الباكــــــر

– 1 –

فتح باب الباروطار منه جسد إنسان..

طار الجسد في الهواء ثم هوي إلى الأرض المبللة برذاذ المطر..

ورغم ازدحام الشارع بالعابرين والواقفين والمتسكعين، لم يتحرك أحد من مكانه، وتحولت كل العيون نحو الرجل الذي كان يتلوي بالألم على أرض الشارع، وظل كل شيء كما هو... الأضواء الباهرة، الألوان الزاهية، والهمسات الغامضة، والموسيقي الصاخبة، ورذاذ المطر الخفيف..

كان الجسد لبحار صغير السن، ذقنه لم تنبت بعد، وجهه الرقيق الدقيق التقاطيع يتمرغ فوق البلاط المبتل... وكان جسده يتلوي في تشنجات تتلوها زمجرة يفرغ بعدها ما في جوفه..

وما هي إلا ثوان حتى انفتح الباب مرة أخري، واندفع منه بحار آخر، وكان وراءه ثلاثة رجال ظلوا يدفعونه ويدفعونه حتى سقط فوق زميله.. ثم استداروا عائدين حتى اختفوا وراء الباب دون أن ينفض أحدهم يديه!

وأخرجت امرأة رأسها من صدر صاحبها، ونظرت إلى الشابين وقد تكوم أحدهما فوق الآخر.. وأطلقت على الفور ضحكة شديدة المجون، لم تلفت نظر واحد من الناس..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 2 –

كان الجو شديد البرودة، والموسيقي تصرخ من خلف الأبواب، ورائحة الشواء تملأ الأنوف، والأفواه تلتهم الفطائر الساخنة، والأسنان تطحن لحم الأخطبوط في لذة غريبة.. والكل يضحك!

كان الناس يمرون من فوق الشابين الراقدين على الأرض وهما يغنيان ويتقيآن ويضحكان معًا.. ثم تحركت كل العيون نحو بحار طازج الهيئة، وجهه أسمر، سحنته مستطيلة شديدة القبح، وكان شعره خشنًا كأسلاك محترقة وملابسه شديدة الأناقة، يرتدي معطفًا فاخرًا، وتحت إبطه لفافة..

توقف البحار فوق رأس الشابين وراح يرقبهما بابتسامة هادئة، ثم استدار نحو البار، وكان واضحًا أنه لم يشرب كأسًا واحدة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 3 –

دفع الرجل القبيح باب البار بكتفه فاحتوته على الفور سحابة الدخان في الداخل، وتحركت عيناه في المكان بسرعة وتذبذبت نظراته عند مائدة يجلس إليها بحار وامرأة، وقبل أن تستقر عيناه فوقهما تمامًا، انطلقت همسة نخست المرأة في جنبها:

«لولا... لولا!»..

واستدارت لولا نحو الباب فرأته، وأطلقت على الفور صيحة التفت لها الجميع:

«جامبون!».

توقفت الفرقة الموسيقية عن العزف، والتفت أفرادها مع الجميع نحو الباب، وكان جامبون لا يزال واقفا هناك كملك، طويل القامة عريض الكتفين فاخر الهيئة، ثابت النظرات.. وانحني له أفراد الفرقة جميعا إلا عازف الكمان، لكنهم عندما بدءوا في عزف مقطوعة وقورة ترحيبا بجامبون، شاركهم في العزف بحماس!

عندما انتهي اللحن كانت المرأة تمزق اللفافة في فرح غامر وما لبثت أن شرعت على الجميع غطاء من الفرو شهقت له إحدي النسوة، وحملقت فيه أخري، وقلبت ثالثة شفتيها وهي تدير وجهها إلى بعيد... وقال رجل كان يلوك في فمه سيجارة:

«دب حقيقي... حقيقي!»..

وسرعان ما أعدت مائدة جامبون في ركن خاص، وغمرت وجه الرجل القبيح ابتسامة زادته بشاعة... كان نصف الوجه الأيسر مشقوقًا، وكان الجرح القديم قد ترك في صدغه أخدودًا شديد الاحمرار يمتد حتى بداية العنق... وانتابت المكان موجة من الفرح الغامر، وكانت المرأة لا تستقر على حال، كانت تتحدث وتدخن وتضحك وتلمس غطاء الفرو في حنان، ثم تهمس بين الحين والحين كأنها تحلم أو تصلي أو تغازل حبيبًا... فيرد جامبون على همساتها بغمغمة يلوي بعدها شفتيه، ثم يهمس متمتمًا:

«ولا تفكري!»..

كان يبدو للجميع شديد الوقار، لكنه بدا للناس أقل وقارًا عندما شرب كأسه الثالثة، وبعد الكأس الرابعة راح يميل على المرأة ضاحكًا بصوت عال، وكان يقبلها، ويهمس في أذنها، ويعض أصابعها... وكانت إذا ضحكت لمداعباته، وإذا بادلته القبلات ازداد احمرار الجرح في وجهه، وازداد منظره قبحًا وبشاعة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

– 4 –

في الخارج كان أحد الشابين قد استطاع أن يتحامل على نفسه ويجلس مترنحًا، وبدا وجهه الوسيم ملطخًا بطين الأرض، ثم رفع رأسه نحو السماء وراح يستقبل المطر بوجهه، وافترت شفتاه عن ابتسامة سعيدة، ورفع كفيه في مرح وهو يغسل وجهه بالمطر... ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة صاخبة، وصاح بكل صوته مناديًا: «ماما!»..

وأحس بعدها بشيء ساخن ينسال عن عينيه، فانتابه الفزع، وصاح مرة أخري: «ماما... »..

فتململ صاحبه وكان لايزال ممددًا فوق الأرض، واعتدل في رقدته، ووضع كفيه تحت رأسه، وانثني جسده حتى أصبحت ركبتاه في صدره، وتمتم متسائلا بصوت خفيض: «ماما؟!»..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 5 –

عندما انتقلت المرأة من مكانها لتجلس فوق ركبتي جامبون كفت الموسيقي عن العزف، والتفت جامبون نحو الفرقة وكانت عيناه شديدتي الاحمرار، ثم صاح يطلب لكل منهم كأسًا، ويطلب لنفسه لحنًا...

وانحني الجميع في احترام ووقار، وبدءوا يعزفون لحنًا هادئًا، وكان عازف الكمان أشدهم اندماجا، فقد لمحت عيناه شيئًا يخرج من جيب جامبون ليندس في صدر المرأة، وتعثر القوس في يده لبرهة، وجذبت المرأة شفتيها من بين شفتي جامبون واستدارت نحوه، والتقت عيونهما في نظرة عاد بعدها كل شيء إلى حاله..

كانت كثافة الدخان تشتد لحظة بعد أخري، وكان الليل قد انتصف منذ ساعة أو يزيد، والصخب يزداد، والضحكات تتعانق، وكان جامبون مفتوح الشهية لكل شيء... كان يجرع الكأس بعد الكأس، ويدخن ويأكل ويقبل المرأة في وقت واحد... ولقد بدا للجميع سعيدًا غاية السعادة، وبدت المرأة لعينيه أشد منه سعادة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 6 –

ترنح الشاب الثاني جالسًا بجوار صاحبه على أرض الشارع، وراح يسأله عما حدث في صوت متلعثم، ثم سأله عن اسمه، ثم صافحه قائلًا إن له صديقًا يحمل نفس الاسم، وتوقفت بجوارهما امرأة كان ثوبها مشقوقا حتى الخصر، ثم مالت نحوهما وهي تسأل ماضغة شيئًا في فهمها:

«معكما فلوس؟!»..

ولم يبد على أحدهما أنه سمع سؤالها، فانثنت إلى الأمام أكثر وأعادت سؤالها بصوت أعلي دون جدوي... فبدا على وجهها الضيق الشديد، ومدت يدها إلى جيب الأول وراحت تعبث فيه، ثم خرجت يدها خاوية، ثم ركعت على الأرض وهي تسب وتلعن وأخذت تفتش جيوبهما جميعا ... وبجوارهما وقف رجل أنيق الحذاء، وعندما رفعت إليه عينيها هزت كتفيها وقالت وهي تنهض:

«ولا حتى سجائر!»..

وما كادت تخطو خطوة حتى جمدت في مكانها، وترقرقت عيناها بسرعة فوق وجه كان صاحبه يخوض في زحام الشارع من بعيد، كان الوجه شديد الوسامة، والرأس متناسق الملامح، والشعر مهدلًا في لا عناية، والملابس موضوعة فوق الجسد المفتول كيفما اتفق.. وكان القادم بحارًا يحمل تحت ذراعه لفافة كبيرة، وكانت عيناه الزرقاوان تنفثان المرح، وخطواته نشيطة..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 7 –

توقفت عينا البحار الوسيم فوق وجه جامبون لثوان خاطفة، واخترقت سحب الدخان همسة نخست المرأة في جنبها: «لولا ... لولا... ».

واستدار وجهها نحو الباب في لهفة، وما لبثت كل العيون أن تحولت مع صيحتها المرحة: «شارك... »..

وتوقفت الفرقة الموسيقية عن العزف، وانحني أفرادها للقادم الجديد ما عدا عازف الكمان، وبدءوا يعزفون لحنًا وقورًا تحية له... وعندما انتهي اللحن، كانت المرأة تفض اللفافة الجديدة لتشرع على الجميع معطفا كان يبرق تحت الأضواء الخافتة، وتعالت صيحة امرأة من ركن في المكان: «كلاب!»..

وهمست أخري في كأسها: «مغفلين!»..

وصاحت فتاة في بحار كان يقف بجوار البار: «سيجارة... سيجارة!»..

وأصبح جامبون يجلس على المائدة وحده... وبدأ يعب من زجاجة الخمر بلا توقف، وبدأ احمرار الجرح في وجهه يزداد وكأنه ينزف دمًا لا يسيل، وجلجلت في المكان ضحكة البحار الوسيم وهو يجذب المرأة إلى ركبتيه ويلتهم شفتيها في نهم، ثم أوقفها أمامه ووضع المعطف حول كتفيها وراح يتفرج عليها في فرح... وعندما احتلت الزجاجة مكانها فوق المائدة، قبض على عنقها بكفه، وراح يفرغها في جوفه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 8 –

حاول أحد الشابين في الخارج أن ينهض واقفًا لكنه لم يستطع، وتقلب الآخر فوق ظهره وفتح فمه للسماء يستقبل فيه المطر، وتعثر فيه رجل كان يمضي مسرعًا، ثم توقف وراح يمطره بالسباب فابتسم، ثم مضي الرجل فاستدار نحو صاحبه ومد له كفه وطلب مصافحته مرة أخري... وعندما سأله عن سيجارة، راح كل منهما يبحث في جيوبه عبثًا... وكانت المرأة ذات الثوب المشقوق مازالت تقف بالقرب منهما، وكانت السيجارة بين شفتيها قد احترق نصفها، فأخذتها بين أصابعها، وانحنت على الشاب الراقد ودستها في شفتيه... ثم بصقت بجواره وهي تبتعد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 9 –

عندما صاح جامبون مناديًا، أيقن الجميع أن شيئًا لا بد أنه سيحدث، كانت زجاجته قد فرغت، وعيناه اشتد احمرارهما ... وعندما همست المرأة في أذن البحار الوسيم ضحك هذا بصوت عالٍ، ثم التفت نحو جامبون ورفع الزجاجة في يده صائحًا:

«في صحتك»..

ولم يرد جامبون التحية، فهز شارك كتفيه بلا مبالاة، ثم رفع الزجاجة إلى شفتيه، وصفع المرأة فوق مؤخرتها وهو يدفعها نحو جامبون، وأصبح الآن وحيدًا، لكن ابتسامته لم تختف، وظلت عيناه الزرقاوان تبرقان بالمرح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 10 –

نهض الشابان وكل منهما يستند إلى الآخر، ثم ترنحا وهما يعودان إلى البار، وهوي كل منهما على الباب فتلقفتهما أذرع رجال كانوا في الانتظار، وسرعان ما ارتدا إلى الشارع مرة أخري، ودار جسداهما واصطدما في عنف، وكادا يسقطان على الأرض.. ثم تمالكا وكل منهما ينظر إلى الأرض باسمًا، وتعالت من خلف الباب نغمة صاخبة، فتراقصا في مرح، وانزلقت قدم أحدهما فسقط على ركبتيه، لكنه سرعان ما نهض مرة أخري... وأخذ يصاحب زميله في الرقص، وكان باديًا أنه في حالة إعياء شديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 11 –

في الداخل كان كل شيء يغلي بالغضب، وكانت المرأة قد عادت إلى البحار الوسيم، وكانت شفتاها مدفونتين داخل شفتيه، وكان جامبون يصيح طالبًا كأسًا جديدة، رغم أن زجاجته الثانية لم تفرغ... وتعثر اللحن في يد عازف الكمان، وكان رواد المكان يتناقصون، والحديث بين الرجلين أصبح مباشرًا..

«جاامبوون!».

وعندما التفت جامبون نحو البحار الوسيم اختفي الجرح في الظلام، وبدا وجهه أقل قبحًا بكثير، ورفع هذا كأسه في يده، فرفع جامبون زجاجته وقذف بها وجه البحار الوسيم.

رغم أن الزجاجة أصابت الحائط وتناثرت شظاياها، فقد توقف العزف، وتقهقر الرجال والنساء على السواء، وأوسع البعض مكانًا للعراك.. والتصقت ظهور الجميع بالحائط، ونهض البحار الوسيم من مكانه، ووقف جامبون متحفزًا، وكان يبدو كوحش بحري خرج لتوه من بحيرة خمر قوية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 12 –

كان الصخب قد خف في الخارج وانطفأت الأنوار وأصبح الشارع معتما..

وعند ناصية الشارع كان الشابان يترنحان... والتفتا ناحية البحر عبر الطريق المنحدر، ورفع أحدهما رأسه نحو السماء وتساءل عن المطر الذي كف... وكان واضحًا أنهما أفاقا وإن كانا يستعذبان الترنح والضحك... ثم تنفس أحدهما ملء صدره، وسرت في بدنه رعدة فدس يديه في جيبي سرواله... وغمرت وجهه سحابة من كآبة جاءت بلا سبب واضح، فنظر إلى صاحبه وسأله عما به، فلم يرد...

وتوقفا تمامًا عن السير... ثم نظرا إلى البحر الممتد بلا نهاية وكانت أضواء السفن تنتشر هنا وهناك في حبات متلألئة... وضحك أحدهما وهو يتمتم:

«ماما؟!»..

وقال الثاني شيئا، ثم راحا يضربان الأرض نحو الميناء في صمت!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 13 –

انقشعت سحابات الدخان ... وكان الرجلان راكعين فوق الأرض في وسط المكان وقد بلغ العراك قمته، وكان الجرح هذه المرة ينزف دمًا حقيقيًّا... وكانت ملامح البحار قد شوهت ببقع زرقاء، وبدا للحظات أن أحدهما لابد سيقتل الآخر... وعندما توقفا عن العراك فجأة، تململ الواقفون بحذاء الحائط... وانتهت الفرقة الموسيقية من جمع آلاتها، وحمل عازف الكمان آلته تحت إبطه وهو يشق الطريق وسط المقاعد نحو المرأة، وكانت هي تحمل غطاء الفرو وترتدي المعطف، وعندما تأبطت ذراع العازف كان البحار الوسيم يهوي بيده من جديد فوق الجرح اللزج... وبدا كأن جامبون لم يشعر بشيء على الإطلاق... كانت عيناه مسمرتين عند الباب، ثم صاح في المرأة بصوت كالزئير: «لولا ... لوووولا!».

وازدادت الابتسامة اتساعا فوق وجه البحار الوسيم عندما أرسلت المرأة لكل منهما قبلة على أطراف أصابعها، وتحولت الابتسامة إلى ضحكة صاخبة عندما اختفت المرأة خلف الباب..

وبدأ عمال البار يتهيئون للانصراف وكان البحار الوسيم جالسًا على الأرض وقد تهدلت خصلة من شعره الذهبي، وظل يضحك ويضحك حتى ضحك معه جامبون، وتحول الضحك «إلي صخب.. ونهض جامبون نحو المائدة واختطف زجاجة خمر ... ثم عاد إلى صاحبه الذي فتح فمه إلى أعلي، وأخذ جامبون يصب الخمر في الفم المفتوح وهو يضحك، وفرغت الخمر وبللت وجهيهما وملابسهما... ووقفا وسط المكان وكل منهما ينظر إلى الآخر في مرح، وعم الصمت لثوان تحرك بعدها كل منهما نحو صاحبه، وارتفعت أذرعهما في الهواء ثم هوت فوق أكتافهما... وغرقا في الضحك من جديد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 14 –

راح الشابان يصعدان سلم السفينة في بطء عندما دوت صفارة سفينة أخري، وبدت السماء صافية شديدة الصفاء ... وما إن وصلا إلى سطح السفينة حتى توقف كل منهما وأخذ ينظر إلى الأفق البعيد، كان الفجر يبزغ، وكان كل منهما يبحث في جيوبه عن شيء ما، وقال أحدهما بصوت خفيض:

«كانت ليلة جميلة!»..

وغمغم الآخر وهو ينفض يديه من البحث:

«سيجارة... سيجارة!»..

ثم بدا علي وجهه الضيق، وانكمشت ملامحه وبدا كأنه يتألم... وانحني فوق السياج، وتأوه، وكان يبدو أنه يتقيأ أمعاءه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 15 –

اكتشف الرجلان فجأة أن الفجر يبزغ، فانتابتهما نشوة عارمة، وكانا يقفان عند ناصية الشارع المنحدر نحو الميناء، وتذكرا المرأة في وقت واحد، ونطقا اسمها معًا، ثم انفجر البحار الوسيم ضاحكًا:

«فرو... فرو!»..

وصفق جامبون وهو ينثني على نفسه من كثرة الضحك، وكان يصيح:

«بالطو... بالطو!»..

ثم راحا يرقصان في الشارع بلا أنغام، ويدقان فوق أرض الطريق المبتلة... ويغنيان!

لأن لنا قلوبًا مثـلكم

تقولون جميعًا إننا رجال غلاظ القلوب متحجرو العواطف لا نفعل شيئًا في الدنيا سوي شرب الخمر واصطياد النساء ومقاومة الأمواج في شجاعة!

سأحكي لكم إذن هذه الحكاية حتى تغيروا أفكاركم قليلًا... نحن نحب الخمر حقًّا، ولكن... هل منكم من لا يحبها ويشربها؟... ونحن نعشق النساء أيضًا، فهل منكم من لا يعشقهن؟... أما عن مقاومة الأمواج، فإن أي طفل يستطيع هذا إذا عاش في البحر عشرين عامًا كاملة!

سأحكي لكم هذه الحكاية حتى تؤمنوا أن لنا قلوبًا مثل كل البشر.

فعندما جاءت ليلة العيد كانت سفينتنا في ميناء بعيد، أبعد بكثير من أي مكان سافر إليه أحدكم... فالبعد في حياة البحارة لا يقاس بالمسافة، لكنه يقاس بالزمن... كنا قد غادرنا آخر موانئ الوطن منذ شهرين، وكان أمامنا شهران آخران حتى نعود مرة أخري، فمن منكم سافر إلى مكان يبعد عن بيته أربعة أشهر في سفر متواصل؟!

جاءت ليلة العيد إذن ونحن بعيدون، ولابد أن كلًّا منا كان يشعر بمثل ما يشعر به الآخرون، فلقد ظللتنا جميعًا كآبة شديدة. وكان كل منا يتجنب النظر في عيني صاحبه، وساد السفينة نوع غريب من الصمت، وكان أحدنا إذا التقي بالآخرين تمتم بصوت فاتر: «كل سنة وأنت طيب!»... وقد يسمع ردًّا وقد لا يسمع، وهو في كلتا الحالتين يمضي في طريقه...

وجاء المساء فارتدي البعض ملابسهم وغادروا السفينة فرادي، وبقي البعض متناثرين هنا وهناك، يقتلون الوقت في الصيد أو اجترار الصمت... ولم يحاول أحدنا أن يسأل صاحبه إلى أين، ولو كان أحدكم إلهًا أو نصف إله لعرف أن كلًّا

منا كان يفكر في نفس الشيء، وربما بنفس الأسلوب والكلمات... وكنت أنا واحدًا من الذين غادروا السفينة، غادرتها على عجل وكأني أهرب من شيء بعينه، ورحت أضرب في شوارع الميناء على غير هدي... ولم أفكر في الخمر ساعتها، ولم أفكر في النساء أيضًا، وأعجبني حذاء كان معروضًا في أحد المحلات فاشتريته، كان صغيرًا دقيقًا يبدو كلعبة، لكني كنت واثقًا - ولا أدري كيف - أنه سيعجب ابنتي وأنه سيناسب قدمها تمامًا.

ولابد أنكم جميعًا تسكعتم ذات يوم في شوارع المدينة ولابد أنكم تعلمون أيضا أن المدينة مهما كبرت فإن لها حدودًا ونهاية، ولابد أن كلًّا منكم يعرف مدينته شارعًا شارعًا، وزقاقًا زقاقًا... فما بالكم برجل يعرف كل شوارع وأزقة كل موانئ العالم؟!

بعد ساعات كان التعب يهدني تمامًا... ولم أكن أرغب في العودة إلى السفينة مبكرًا، وكان حذاء ابنتي يثقل ذراعي ويضايقني رغم صغره وخفة وزنه، ولم تعد في الميناء شوارع لم أذرعها، وبدأ حلقي يجف، وبدأت أشعر بوطأة الكآبة تثقل صدري، وكان لابد لي من كأس... كأس أو كأسين ثم أعود في هدوء!

ولابد أن كلًّا منكم يعرف تمامًا ذلك المكان الذي يلائمه إذا كان وحيدًا، أو يرغب في الاختلاء إلى نفسه... هذا المكان بالنسبة إلى يكاد يكون في كل موانئ العالم نسخة واحدة لا تتغير، وفي بعض الأحيان كنت أظن إذا ما أفرطت في الشراب بعض الشيء، أن هذا المكان واحد في كل الدنيا، وأنه يتنقل معنا ويتبعنا من ميناء إلى ميناء كالقدر.

هناك - في هذا المكان الواحد الذي لا يتغير - ستدهمك تلك الرائحة الغريبة التي تفتح شهيتك للطعام وتدفعك إلى الرغبة في التقيؤ في نفس الوقت... الشوارع الضيقة الصغيرة التي تتلوي بين الحيطان كثعبان أسود، الضوء الخافت الذي يزيد من وطأة الظلام على العين، البيوت الواطئة الصغيرة، الأبواب الضيقة المداخل، ضحكات النساء العاريات خلف النوافذ والأبواب، وغناء السكاري، سباب الرجال ذوي المدي الحادة والعيون الغائرة والصدور العارية والسجائر المشتعلة بين الشفاه!

في هذه الأماكن المتشابهة في كل موانئ العالم، تستطيع أن تخلو إلى نفسك في صندوق من تلك الصناديق المعتمة التي تتناثر هنا وهناك، وتستطيع أن تشرب فيها أقوي أنواع الخمور في الدنيا وأشدها رخصًا في الثمن والجودة معًا، وستجد هناك لابد رجلًا بدينًا، يضع فوق صدره فوطة قذرة، والموائد من خشب متهالك، والمقاعد كانت في الأصل صناديق لزجاجات فرغت... ولا بد أن يكون للرجل البدين زوجة تساعده في عمله، ولابد أن تكون هذه الزوجة نحيلة شاحبة الوجه مشدودة الجلد، وقد تصادف عند الباب

امرأة، وستراها وأنت قادم شديدة القبح والدمامة، وستقابل نظرة الاحتقار منك بابتسامة، فهي تعرف أنك بعد كأسك الثالثة ستراها جميلة، ولسوف تجدهن - نساء هذه الأماكن - طويلات البال، متسامحات وكريمات... فالواحدة منهن ستعرض عليك نفسها في البداية، ولن تغضب منك إذا رفضتها، وستطلب منك سيجارة، وإذا قدمت لها كأسًا أو كأسين، تصبح على استعداد لأن تسمعك طوال الليل دون تأفف!!

قادتني قدماي في ليلة العيد هذه إلى المكان دون إرادة دخلت الصندوق المعتم وطلبت من الرجل البدين كأسًا دون أن أنظر إلى وجهه، وصب الرجل لي كأسًا ووقف ينتظر حتى شربتها في جرعة، ثم صب لي الكأس الثانية... ومضي!

ولابد أن شيئًا ما يعكس على وجه الإنسان ما يعتمل في نفسه، إن هذا الرجل البدين - من دون خلق الله جميعًا - يشعر بما نريد من مجرد نظرة، ونفس هذا الرجل البدين يصبح على استعداد لأن يقدم لك الكأس الأولي ثم يمضي إذا رأي أنك جئت مترويًا... وأنا لم أفكر في شيء كهذا في تلك الليلة، فعندما أمسكت بكأسي الثانية وضعت الحذاء بجواري في رفق، وقدمت سيجارة للمرأة التي وقفت أمامي باسمة، وعندما أشعلتها لها نفثت الدخان بين عيني تمامًا ثم سألتني في رفق:

«كأس؟!».

هززت رأسي نفيًا فمضت عني دون كلمة، ورفعت الكأس إلى شفتي فجاءني البدين بكأس جديدة، ودبت أقدام زوجته فوق الأرض كالماعز، ثم وضعت أمامي طبقًا مليئًا بأشياء تؤكل... ثم ابتسمت.

ورغم أنها لم تفه بكلمة، فإنني رددت على النظرة والابتسامة بهزة من رأسي، فتمتمت بصوت رفيع ثاقب:

«جميلة... عندي جميلة!».

كانت تعرض خدماتها دون مقابل، فهززت لها رأسي رافضًا وجرعت الكأس الثالثة، فجاءني البدين بكأس جديدة، بدت لي المرأة عند الباب لا بأس بها!

وقعت عيناي على الحذاء الصغير فرحت أفكر في دعوتها على كأس... لم أكن قد رأيت وجهًا من الوجوه التي تناثر أصحابها في الصندوق المعتم من حولي، بحثت بعيني في المكان عن شيء أراه، فاصطدمتا بوجه كان يبتسم... وجه شاحب شديد الاصفرار، له عينان مستطيلتان، وشعر فاحم السواد، وكان صاحبه يحمل في يده كأسًا، وعلي شفتيه ابتسامة واسعة.

لست أدري كيف حدث هذا بالتحديد، فعندما رفعت كأسي إلى شفتي برقت العينان المستطيلتان، ورفع الرجل كأسه ثم صبها في ابتسامته الواسعة!

وكان طبيعيًّا هذا الذي حدث بعد ذلك، فقد طلب لي الرجل كأسًا، فبادلته التحية، ثم انتقل إلى مائدتي - أو انتقلت أنا إلى مائدته وهذا أرجح - وطلبنا زجاجة كاملة بعد أن تصافحنا، وكان كل منا يبدو سعيدًا برفقة صاحبه.

من أول وهلة عرفت أنه لا يتحدث لغتي، كان يابانيًّا أو صينيًّا أو إندونيسيًّا أو مالاويًّا أو كوريًّا لكنه لم يكن هنديًّا...

ورغم هذا رحنا نتبادل الحديث بالأيدي والأصوات ونحن نشرب، وعرفت أنه يعمل على سفينة بضائع، وأنه متزوج وله بيت، وعندما أخرج صورة زوجته وجدتها شديدة الجمال فتانة، وصافحته واقفًا، وشربنا معًا نخب الزوجة البعيدة.

قبل أن يفرغ نصف الزجاجة دب في المكان شاب طويل فارع الطول، كانت خطواته قوية بحيث التفت إليه كل من في الصندوق المعتم، كان نحيفًا، أصفر الشعر، أزرق العينين... وقلنا إن هذا الشاب لابد من الشمال... قد يكون فرنسيًّا أو هولنديًّا أو دانماركيًّا أو نرويجيًّا أو سويديًّا وربما يكون ألمانيًّا، لكنه ليس إنجليزيًّا بحال من الأحوال، لأنه لم يكن متأنقًا، وكان جلده غير مشدود، ولكم تكن أذناه كبيرتين!

قلت هذا لصديقي وقاله هو لي ونحن نشرب الكأس الأولي من الزجاجة الثانية، وحملت الحذاء الصغير ووضعته تحت المائدة، كان الشاب يجلس بالقرب منا وكان صاحبي سعيدًا، فعندما تلاقت نظراتهما رفع له الكأس في تحية صاخبة، ورفع الشاب كأسه وصبها في فمه بسهولة، فقررنا على الفور أنه بحار عظيم، ودعوناه لمشاركتنا المائدة.

وتأكد لنا على الفور صدق ظننا فيه، وجاءت المرأة لتطلب سيجارة فأعطاها كل منا واحدة... وقال الشاب إن الإسبانيات هن أجمل نساء الأرض على الإطلاق وأشهاهن، ولم يكن فينا من يفهم لغته ذات الكلمات الضخمة، لكننا لم ننتبه إلى ذلك، فعندما قدمنا له كأسًا ثانية طلب من الرجل البدين زجاجة، وفرد ساقيه أمامه وراح يحكي حكاية ليلته الأخيرة في برشلونة!

وقبل أن يتم صاحبنا الجديد حكايته، اقتحم الصندوق المعتم رجل يترنح ويصيح بصوت عال، وتوقف الشاب عن الحديث وهمس باسمًا:

«أمريكي!».

عند الباب كان العملاق يقف بملابس زاهية الألوان، وكان رأسه لا يكاد يستقر على حال كقدميه، وذراعاه طويلتين كأنهما غوريلا هربت من أدغال قريبة،

ولم يكن له شارب... وعندما ترك جسده لساقيه ارتمي نحونا، وكاد ينكفئ على الأرض لولا صاحبنا الشاب الذي تلقفه، وضحك الرجل وتحدث بلسان معوج، ثم جذب مقعدًا وشاركنا، وعندما قدمنا له كأسًا صاح في الرجل البدين أنه سيدفع حسابنا كله!

تذكرت الحذاء وقتها فتاقت نفسي للعودة إلى البيت، ومددت يدي تحت المائدة ورفعته إلى أعلي في مرح، رآه الجميع فتصايحوا وهم يسألون عن صاحبه، ووقف الشاب يشرب نخب ابنتي ثم انحني وطلب الزواج منها، قلت لهم إن اليوم يوم عيد فانطلقنا جميعًا نغني في وقت واحد!

وأبرز صاحبي الأول صورة زوجته مرة أخري، وتلعثم الأمريكي وهو يطلب منه يد زوجته الجميلة، فضحكنا جميعًا... ووقف الشاب صائحًا: «يحيا الحب!»... وقفز الأمريكي فوق المائدة وراح يرقص، وانهمرت الكلمات من أفواهنا مختلطة بالضحكات الصاخبة... ودعونا الرجل البدين على كأس فدقدقت أقدام زوجته كالماعز وهي تلبي طلباتنا في سرور.... ولمحنا بحارًا زنجيًّا فصفقنا له جميعًا في حماس، واندفع نحوه الأمريكي ودعاه للشرب معنا مؤكدًا أنه من أبناء الشمال، وشرب الزنجي كأسه ثم طلب لكل منا واحدة، وشربنا نخب إفريقيا، ورأي الزنجي حذاء ابنتي فقبله، وجاشت نفسي بحنين طاغ فرحت أغني، واكتشفنا أن الأمريكي خفيف الظل، وأن صوت الزنجي رخيم، وأن له حبيبة تنتظر عودته من سنين!

وعندما تسلل ضوء الصبح إلى الزقاق فتحت إحدي النسوة نافذة غرفتها وانهالت علينا بالسباب وطالبتنا بالسكوت، فنهرها الرجل البدين وماءت زوجته في وجهها وتبادل الثلاثة السباب... وانطلقنا جميعًا نضحك، وأرسل كل منا للمرأة قبلة على أطراف أصابعه..

وسرعان ما احتوتنا أزقة المكان وحواريه، وكنا جميعًا سعداء، كنا نضحك، ونغني، ونصيح.... وكان كل منا يلقي بذراعه على كتف صاحبه، ونضرب الأرض بأقدامنا في نشوة، ونطأ مع الفجر فلول الظلام المتبقية.

في صباح اليوم التالي، اكتشفت أني نسيت الحذاء في الصندوق المعتم... وكانت السفينة في عرض البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

غراميـات بحـــار صغيـــر الســــن

كان من المستحيل على أي مخلوق في الدنيا، أن يفكر في مثل هذا الجو الراكد الملتهب، ورغم هذا فلقد كان الضابط الصغير مصممًا على أن يفعلها، ويفكر... ولقد خطرت بباله «ماريا» فهمس لنفسه بصوت مسموع.

«اتجوزت!»...

ثم تسربت الأفكار من ذهنه ليبقي عقله شاغرًا، ورغم هذا كان يشعر أنه لابد أن يفكر في شيء ما، فمن المستحيل أن يكف العقل عن الحركة، كالقلب تمامًا... وفي مثل هذا الجو الآسن يصبح التفكير بطيئًا، ملولًا، يتسكع في ثنايا الذكريات كالسكران، يبحث لنفسه دائمًا عن مكان يكِنُّ إليه... وعادت ماريا تلح على ذهنه من جديد، فتأفف... وقال لنفسه دون همس: «اتجوزت... خلاص اتجوزت!»..

كان المحيط يبدو ساكنًا لامعًا كأنه سطح إناء مملوء بالزئبق... كان واسعًا مخيفًا يمتد ليشمل الدنيا من كل ناحية، ويحاصرها.... والسماء صافية شديدة الصفاء، في وسطها كان قرص الشمس يصب نيرانه بلا رحمة... وبدت السفينة وكأنها لعبة ساكنة، وبدت وكأنها لا تسير، حتى نفثات الدخان التي كانت تتصاعد بين الحين والحين من مدخنتها، كفت... وبدت للعين وكأنها مهجورة!

على السطح... لم يكن هناك أحد...

وفي الداخل... كان صوت الآلات يطن كالأبد... لا يتوقف ولا يكن، كان بدوره قد أصبح صمتًا لا يسمع وقد استلقي الرجال على الأسرة والمقاعد وفوق الأرض عرايا الصدور،نابتي الذقون، هامدي الأجساد كأنهم جثث... ولم يكن هناك واحد منهم يدخن سيجارة!

وشعر الضابط الصغير وكأنه نقطة بيضاء من الظل تتحرك بجوار دفة القيادة، ولو كان في الشمس أحياء لبدا لهم الآن كذبابة حائرة... هو يعرف كل شيء عن نفسه... عن ذقنه النابت الذي تعمد أن يترك شعيراته تستطيل، وكان يعرف أيضًا أنه يبدو كالنشاز حول وجهه الدقيق التقاطيع... وكانت ماريا تناديه دائمًا: «يا طفلي» وكان هذا يغيظه... وأثبت لها المرة بعد الأخري أنه رجل كالرجال، ورغم هذا فلم تكف، رغم أنها تصغره في السن..

«اتجوزت.... قلنا اتجوزت!»..

كان قميصه ملتصقًا بلحمه تمامًا، فدلف إلى الداخل وخلعه وجفف به عرقه الغزير ثم ألقاه في ركن الغرفة، وتحسس صدره العاري من الشعر، ثم نظر إلى أصابع قدميه من خلال الحذاء المفتوح فبعث منظرها القذر السرور في

نفسه... حملق في البوصلة فلم يقرأ شيئًا، فتحرك نحو الدومان وتسلق بعينيه جسد البحَّار الواقف خلفه، ثم فكر في النوم!

رغم أنه يعلم أن شيئًا من هذا لن يحدث، فقد بدت له الفكرة محتملة ومعقولة، ولو حدث وتغير الاتجاه وانحرفت السفينة ونام كل من فيها يومًا كاملًا، فلسوف يستيقظون قبل الوصول إلى أقرب الشواطئ إليهم بأيام وأيام..

«اتجوزت... قلنا ستين مرة اتجوزت».. قالها هذه المرة دون أن تخطر بباله ماريا، قالها دون أن يعي، وتحركت عينا البحَّار الواقف خلف الدومان وزمجر.

«هي مين اللي اتجوزت يا قبطان؟».

غادر غرفة القيادة إلى الممشي من جديد، وحاول أن ينظر في عين الشمس فلم يستطع، وتمني لو انشق البحر عن سفينة أخري أو طائر أو حوت أو كارثة تبدد هذا الأسن.. ثم تلكأ ذهنه عند كلمة «فراغ» فبدت له عظيمة المعني، ثم بدت وكأنها تعني «لا شيء» فعاد إلى الداخل وراح يحدق في البوصلة وصمم على أن يقرأ، ووجد اتجاه السفينة صحيحًا، ورغم هذا قال: «5 درجات يمين!»..

ردد البحار من بعده في آلية:

«5 درجات يمين!»..

أخذ يرقب السفينة وهي تنحرف عن طريقها وتغير اتجاهها ثم اكتشف أن شيئًا لن يحدث، وأنها سوف تظل سائرة في المحيط دون أن تثير سمكة صغيرة، فعاد يقول: «5 درجات شمال!»..

وبدا البحَّار كأنه لم يسمع، غير أنه قال مردّدًا: «5 درجات شمال»!

ظلت عيناه تحملقان في البوصلة لكنه لم يقرأ شيئًا، ولقد أسعدته ماريا طوال عام كامل... الكئوس والعشاء والثلج السابح في الجو كقطع القطن المندوف، ولونه الناصع يكسو التلال والجبال وفروع الأشجار والمنازل..

«ألا تريد أن تقبلني؟!»..

صفرت الريح فالتهبت أذناه من البرد، وكان طعم شفتيها دافئًا، وأحس بعد أن قبلها أنه أكل في تلك الليلة أكثر مما ينبغي، وعاد إلى السفينة وكأنه ينزلق فوق سفح من الثلج الأبيض، وأقسم ليلتها أنه يكره حياة البحر، ولم يذكر تريزا على الإطلاق!

«اتجوزت... ما ريا اتجوزت!»...

همس بها إلى قرص الشمس وهو يعود إلى الممشي، وبعد أيام سوف يصلون إلى الشاطئ، ولسوف يجد أرديكا في انتظاره، في خطابها الأخير كتبت له: «مع حبي».... ولقد كان يعلم أنه سيعود إليها ذات يوم، فكتب لها عشرة خطابات من العشرين خطابًا التي يملكها، وهو لم يقبلها في المرة السابقة، لكنها بدت له شهية كقطعة لحم أنضجتها نار هادئة وضعت يدها فوق ذراعه، فرفع اليد وألصقها بخده، ثم قبل أطراف أصابعها البنية اللون... وعندما حكي لهم ما حدث ضحكوا جميعًا منه، وأخرج منعم من أنفه صوتًا قبيحًا، وقذفه شاكر بفرشاة الرأس، وقالوا عنه إنه خيبان... وكانت ماريا تناديه: «يا طفلي» وكان هذا يغيظه، وطلبت منه أرديكا ليلة الرحيل أن يكتب لها كل يوم... وهمس لنفسه: «بكره تتجوز!»...

همسها وهو يعود إلى الداخل متأففًا، ورفع عينيه إلى البحَّار وسأله: «تشرب ليمون؟!»..

وبلل البحار شفتيه الجافتين بلسانه، ولم يرد... فقال الضابط الصغير: «بيزود العطش... كل الواحد ما يشرب يعطش زيادة، كل ما يشرب، كل ما يعط.....».

كف فجأة عن الكلام، وخفق قلبه.

لماذا لا يبدأ الليلة؟!

ولأول مرة تبرق عيناه، فبعد ثلاثة أشهر على الأكثر سوف يري تريزا... سلمته نفسها من أول لقاء ولم تطالبه بشيء... وكانت أول جملة تقولها له: «ظللت أنتظرك ساعة كاملة!»..

ولم يشعر بالسعادة في حياته قدر إحساسه بالسعادة ليلتها..

«ظللت أرقبك منذ دخلت مع أصدقائك!»..

وعندما ضمها إلى صدره وهما يرقصان أحس بالبرودة تسري في جسده، واستكان رأسها فوق صدره..

«يا أميري الصغير!».

رغم صغر سنها كانت كلماتها كبيرة..

«لا تفكر في كثيرًا، فعندما تعود سوف تجدني في انتظارك»..

وقرر ذات يوم أن يتزوجها!

«أصلك عبيط ومختوم على قفاك!»..

كان منعم أشد الساخرين يومها.

«لن تجد من تحبك أكثر مني!».

وعندما احتواها أحس كأنه يحتوي ذاته!

«مغفل»..

ومنذ ثلاثة أعوام وهي تناديه: «يا أميري!»... وذات مرة كاد يكسر ضلوع ماريا فلم تتألم، وهمست في أذنه: «يا طفلي العزيز!»..

وقالت له أرديكا وهي تضم كفه إلى صدرها: «في المرة القادمة سأريك الجنة!»، ثم دعته إلى رحلة في الغابة..

وذات ليلة جلس يكتب حتى الصباح، وملأ كراسة كاملة بالخطابات، وكلما رأي تريزا ازداد شوقه إليها، وكلما ابتعد عنها خفت حدة رغبته فيها... وكان موقنًا أنها ستتزوج ذات يوم، وكان إذا اقترب من أحد الموانئ فتح الكراسة ونقل خطابًا من خطاباته العشرين... ثم أرسل لماريا خطابين من الكراسة، وإلي أرديكا عشرة، وكان قد استنفدها جميعًا في خطاباته إلى تريزا... ولذا أصبح عليه أن يكتب خطابًا وأن يفكر... فالميناء يقترب، وهي تعرف موعد وصوله.

بدا المحيط ساعتها وكأنه شيء بلا اسم، فليس هناك اسم يحتمل هذا الإناء الرهيب.. وعندما أخبرته ماريا أنها تزوجت قالتها في جملة واحدة: «تزوجت في الأسبوع الماضي وهو يشبهك إلى حد كبير!».. وكتبت له تريزا في خطابها الأخير: «إن خطاباتك تثير في نفسي الحيرة، كأن الذي كتبها مؤلف قدير!»... وتفصد جسده بالعرق، وبدا له المحيط محتملًا، وأطل على المياه وراح يرقب السفينة وهي تسير... ولسوف يقبل أرديكا هذه المرة حتمًا، واستدار نحو الداخل وصاح في البحَّار: «تشرب ليمون؟!»..

وغمغم البحَّار بكلام لم يسمعه، ففتر حماسه على الفور، وكانت مياه المحيط تبرق بضياء يأخذ البصر.. فتثاءب، ثم خطر له الخاطر مرة أخري... فلماذا لا يبدأ الآن؟!

واندفع نحو الداخل بخطوات سريعة، ودق قلبه بعنف. وعندما استند إلى حافة النافذة كان الورق تحت يده، والقلم بين أسنانه، وكان يرقب البخار المتصاعد من المياه في سحابات متموجة، وكان قرص الشمس يزداد التهابًا، عندما لمعت في عينيه نظرة شديدة المرح، ثم انثني يكتب فجأة: «حبيبتي... أكتب إليك وضوء الفجر يبزغ من خلف الأفق، ظللت صاحيًا طوال الليل أفكر فيك، وحملني نسيم الصبح على جناحيه لأرفرف بروحي فوقك... وما زالت نجمتنا تطل على من أعلي وتحكي لي عنك كثيرًا، هل رأيتها بالأمس؟...».

استغرق الضابط الصغير في الكتابة، ولم يسمع صوت البحَّار وهو يسأله بلسان جاف: «تشرب ليمون يا قبطان؟!».

1962

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحــب يقـــتـــل نعيــمــــة

ذهبت نعيمة... ماتت!

ولو أن واحدًا منَّا اختطفه الموج لما حزنا عليه مثل هذا الحزن، ولما حاول أحد الرجال أن يقتل الآخر، ولما اجتاحت السفينة تلك الثورة التي حسمتها نعيمة نفسها، فأسلمت الروح، وتركتنا جميعًا في فراغ الحزن القاتم!

لم تكن نعيمة ملكًا لواحد منَّا بالذات، كنا نملكها جميعًا، ونطعمها جميعًا... وكانت كلما تشاجرت مع حسن أو تشاحنت معه، أحسسنا بالدماء تزغرد في عروقنا بالغضب ورحنا نطارده.. وكان حسن هو الآخر ملك السفينة كلها، كان صديق الجميع، ليس له مكان معين يأوي إليه، ولا فراش معين يبيت فيه، ولم تكن له مطالب... كان يأكل ما نأكل منه، ويشرب ما نشرب منه، وإذا اختفت نعيمة عن عينيه ليلةً أو ساعةً تحول إلى مجنون، كان يريدها دائمًا بجانبه.. وكان هذا هو مطلبه الوحيد!

عندما جاءا إلى السفينة لأول مرة، كان مجيئهما حدثًا اهتزت له السفينة.. اشتراهما نور من إحدي بلاد آسيا الغويطة... كانا صغيرين دقيقي الملامح، لا يتميز أحدهما عن الآخر في اللون أو الشكل... غير أن حسن مع الأيام أصبح رجلًا بكل ما تحمل الكلمة من معنًي... كبر رأسه واستوت أذناه... وازداد اخضرار عينيه، وغزر شاربه... وأصبح جسده جسد أسد، وكان ذيله مبتورًا غليظًا يبدو وكأنه عقلة إصبع في أسفل الظهر!

وعلي العكس منه كانت نعيمة...

منذ جاءت ومواؤها الرقيق يهز مشاعرنا برقته، كانت إذا جاعت لا تصرخ مثله ومثلنا، ولا تملأ ممرات السفينة بالصياح، كان يكفي أن تتمسح في أقرب السيقان إليها في رفق، وأن تقول: «نوو!» مثل ملكة مرهفة الحس. كانت نعيمة هي أرق الإناث في حياتنا على الإطلاق.. كانت دقيقة الوجه دقيقة الملامح، أنفها الصغير ينبت وسط وجهها كبرعم لزهرة ستتفتح، عيناها بلا لون محدد، ولكنهما تجمعان كل ألوان الدنيا الجميلة... وكان جسدها ينسدل في تناسق لين، وإذا سارت راح يتثني ذات اليمين وذات اليسار بلا فجور، وكان ذيلها يبدو مثل مؤخرة فستان عروس في ليلة زفافها.

وأصبح حبهما مضرب الأمثال.. ومبيتهما كل ليلة مبعث شجار بين الرجال..

وكان على نعيمة أن ترضي الجميع.. فهي ليلة في فراش هذا، وليلة في أحضان ذاك، بالدور... وكان صاحب الدور يبدو سعيدًا كأنه عريس، كان الواحد منا ينظف فراشه ساعة النوم ويجهز فيه مكانًا لنعيمة، وكان سعيد الحظ هو من يستطيع إبعاد حسن عنها، فإذا انطفأ النور وساد السكون إلا من طنين الآلات الدائرة بغير توقف، استشعر الواحد منا دفء نعيمة في أحضانه..

كانت تتمدد بطول جسدها اللدن الدقيق، تحوطها ذراع الرجل منا في حنان، وينبعث صوت تنفسها في هدوء الليل كالنغم.. غير أننا غالبًا ما كنا نفاجأ بحسن وقد تسلل - لا يدري أحد كيف - إلى حيث تبيت نعيمة، وقد يصحو الواحد منا على جسده الضخم وهو رابض فوق الصدر تمامًا، وقد تحول صوت تنفسه إلى زمجرة، فإذا ما أزحناه بعيدًا، ماءت نعيمة في عتاب، ثم قفزت وراءه إلى حيث يذهب... ودائمًا ما كانا يختفيان في مكان لا يدريه أحد!

نعيمة؟

كانت الأنثي الوحيدة التي أجمع الرجال على حبها.. ولا شيء كان ينغص علينا حياتنا سوي أنها لم تحمل مرة.

ولم تلد أبدًا... ولقد عذبنا هذا كثيرًا، وثار بعضنا على حسن، واتهمه البعض بأنه ليس رجلًا، واقترح الباشريس أن نزوجها لواحد غيره... كنا نتوق جميعًا لأن تلد لنا نعيمة عددًا من الأولاد يملأ علينا حياتنا في السفينة... غير أن هذه الرغبة دائمًا ما كانت تختفي في الليل، عندما يتشاجر رجلان على مبيت نعيمة، وتمضي ساعة أو ساعتان فنسمع صراخ صاحب الدور وهو يطرد زوجها، ومواء نعيمة وهي تتبع حسن إلى ذلك المكان الذي احترنا فيه.

ثم جاء مشمش ومعه فردوس!

ويوم جاء، حدث في السفينة ما لم يحدث فيها من قبل، كان الباشريس هو الذي اشتراهما من إحدي دول إفريقيا السوداء، وكان الرجل يصيح فينا وقد تجمعنا من حوله:

«ما هو لازمن عيال يملوا علينا المركب.. لازمن عيال.. والبت نعيمة عقرة، والواد حسن باين عليه خيبة ومش نافع!»..

كان مشمش وفردوس صغيرين قذرين أسودين يبدوان وكأنهما متشردان عثر عليهما الباشريس على رصيف الميناء.

كانا يبدوان منذ اللحظة الأولي وكأنهما دخيلان غريبان.. لم يكن لهما مواء كمواء حسن أو نعيمة.. كانا إذا ماءا صدر منهما أنين ضعيف لا يلبث أن يتقطع ويتمزق رعبًا أمام زمجرة حسن أو صوت نعيمة الرقيق الصافي.

... في البداية، شغلنا بمشمش وفردوس يومًا أو يومين، ثم عاد كل شيء إلى حاله.

عاد حسن ونعيمة يملآن علينا السفينة، وانزوي مشمش وفردوس في كابينة الباشريس وكأنهما آمنا منذ اللحظة الأولي أن أحدًا لا يريدهما هنا... كان أحدنا إذا رآهما صرخ فيهما وطاردهما، حدث هذا مرة ومرة ومرات... فلم يعودا

يغادران الكابينة أبدًا... واكتفيا بحب الباشريس الذي كان يكتم غيظه، والذي أصبح لا يجد لذة تعادل لذته وهو يحمل (نورًا) بالعمل ليل نهار.

أيام وأيام كانت تمضي بنا دون جديد، تشرق الشمس في الصباح على زرقة المياه الصافية، وتطل في الظهر على موج صاخب أو مدفون، وتغرب في المياه البعيدة كل مساء.. ثم تشرق من جديد في صباح اليوم التالي..

أيام وأيام كانت تمضي بنا... ولكن مشمش كان ينمو بسرعة، وكان جسد فردوس يفور ويستوي ويترعرع ويمتلئ ليصبح متناسقًا في أنوثة متفجرة، وكان وجهها يستدير في حلاوة، وامتلأ عجزها باللحم، وأصبح جسدها يتثني كلما سارت في فجور لفت أنظار الرجال يوم تشاجر حسن مع مشمش، وكاد أحدهما يقتل الآخر..

وهكذا فجأة انفجر كل شيء.

وهبت على السفينة ريح دافئة يوم قال نور في ثورة عارمة إن فردوس تهوي حسن، وأنها تريد أن تخطفه من نعيمة.. كان نور غاضبًا شديد الغضب، كان ثائرًا وهو يتحدث... وكاد ذات ليلة أن يمسك بخناق الباشريس الذي بدأ غضبه يجتاح السفينة والرجال، والذي أصبح يهدد بتزويج مشمش لنعيمة نفسها!

وكان كل شيء محتملًا إلا هذا!

حسن يحب فردوس..

نعم...

كان الرجال يرونهما معًا ويلحظان اختفاءهما في متاهات السفينة التي لا يعرفها سوي حسن.

ولكن أن يتزوج مشمش من نعيمة... فهذا ما لا يطيقه أحد، ولا يقبله رجل من الرجال.

«ومن غير ما نمسك في بعضينا يا جدعان... وهي نعيمة ترضي بكده؟!».

قال أحدنا هذا وهو يشير نحو نهاية الممر حيث كانت نعيمة تقف وظهرها إلى الحائط تصرخ في مشمش بعصبية وهو يحاول التودد إليها.

واندفع نور يجري نحوها وهو يتخبط في حيطان الممر، وانقض على مشمش بقدمه في ركلة هائلة كادت تصيبه لولا أن قفز مشمش قفزة بارعة أبعدته عن الركلة القاتلة.. وجن جنون الباشريس، واجتمع الرجال في المساء في جلسة صاخبة، وارتفعت الأصوات، وكان الجو في الخارج عاصفًا، واشتد

صخب الأمواج، وصفير الرياح... وكاد نور أن يقتل الباشريس ليلتها، ثم اتفقا مع أول خيوط الفجر على حل أرضي الجميع.

لم يكن هناك مفر من هذا... عزلنا حسن ونعيمة في طوابق السفينة العليا... وأبقينا مشمش وفردوس في الطريق السفلي... ونام الرجال ليلتها وذقونهم طويلة، وكل منهم يحدث نفسه بحكاية بدت له غريبة!!

جاء العصر علينا والسفينة تتهادي فوق سطح شديد الهدوء، وشاهد الرجال الباشريس في مؤخرة السفينة وهو يضاحك نورًا ويقدم له سيجارة دون عتاب... وكان أحدنا إذا سمع مواء حسن، ونداء فردوس أغرق في الضحك... لكن أنين نعيمة بدأ يغزو القلوب.. كان أنينًا غريبًا لم نتعوده منها. وكادت قلوبنا تنخلع يوم صاح نور في الميس الكبير أن بطن نعيمة منتفخ... وأنها حامل في ستة أولاد!!

كانت السفينة أيامها قد انحرفت إلى المحيط وراحت تخب فيه نحو الشمال. وكانت ريح الشمال كلما هبت علينا أنعشت فينا ذلك الإحساس الغامض بالرغبة في الإنجاب... وأصبح همنا جميعًا أن نهيئ لنعيمة كل أسباب الراحة... وكان نور يسأل الباشريس كل ساعة عما يجب عليه أن يفعله إذا ما حانت لحظة الوضع.. وكان مشمش يبدو في الأيام الأخيرة شرسًا كثير المواء متفردًا جواب ممرات وأسطح... وكان حسن قد عثر لنفسه على مخارج من الأسطح العليا إلى الأسطح السفلي وتعلم مشمش كيف يقفز من فوق السياج إلى أعلي.... وكما يفعل الآباء عادة عندما يستسلمون لطغيان الأبناء، بدأ الرجال يستسلمون أمام إصرار حسن وفردوس، ومواء مشمش، وأنين نعيمة... وبدأ البعض منا إذا رأي شيئًا هنا أو هناك أخفي هذا عن الآخرين... وكان بطن نعيمة يزداد انتفاخًا، وبدأنا نتراهن على عدد الأطفال، وبدأ كل منا يتودد إلى نعيمة ويدثرها ويطعمها إذا ما لجأت إليه وامتلأت السفينة من حولنا بالحياة، ولم يعد المحيط موحشًا، وافتقد البعض منا ذلك الصمت الكئيب الذي كان يدثرنا إذا ما غابت السفينة في البحر أسابيع... وتعالت الضحكات، وبدأ البعض يفكر في الزواج إذا ما عاد إلى الوطن يومًا!!

ثم حدث ما حدث في ذلك الصباح الغريب الذي ماتت فيه نعيمة!

كان باب الممر الأيسر مفتوحًا على مؤخرة السفينة، وبدا المحيط من خلفه مثل كرة لامعة معلقة في فضاء بلا نهاية... وكان نور يقف قبالة الباشريس وفي يده سكين، ومن بين شفتيه كان الغضب يتناثر كالرصاص الملتهب...

«أنا قلت لك يا باشريس... أنا قلت لك إن ده حا يحصل!». في البداية - وعندما بدأنا نتجمع من حولهما - لم يكن أحدنا يفهم شيئًا مما يدور... حتى حانت من أحدنا نظرة إلى كابينة نور المفتوحة الباب، فشهق!

كانت نعيمة ممدة فوق الفراش وسط بركة من الدماء... وكانت عيناها باهتتين تطل منهما نظرة تصرخ بالألم.

«دي بتولد!».

وصرخ الباشريس في وجوه الجميع:

«عقل نسوان... هي اللي جابته لنفسها!».

«فردوس هي السبب... هي اللي جريت وراه!».

«لم لسانك يا بحري... إيه اللي نزل حسن هنا؟!..».

«حانقتلها!».

«وانا حاندبحك!».

«وعزة الله لو مديت إيدك عليها لنقطعك حتت ونرميك للسمك في الميه!».

كان الشجار يشتد، وأنين نعيمة يتردد بلا انقطاع... ونحن جميعًا نقف مكبلين بحيرة شديدة... كانت دماء نعيمة تنزف بلا توقف، وكان أنينها يخفت ويخفت... وتناثرت الحكاية من فم الباشريس ونور... وكان الباشريس يري أن المسألة مسألة نسوان، وكان نور يري فيها جريمة... وأنه لابد أن يثأر ويقتل فردوس!

في الصباح قفز حسن من السطح العلوي، ثم ماء بعلو صوته وأمام كل الرجال... وردت عليه فردوس وهي تفر إليه من كابينة الباشريس يتبعها مشمش صامتًا... والتقي العاشقان وسط السطح السفلي وراح كل منهما يتمسح في الآخر... ولم يكن أحدهما ليأبه بمواء مشمش أو زمجرته، غير أن حسن توقف عن الغزل عندما سمع صوت نعيمة تناديه من أعلي...

ونادت نعيمة بصوت واهن: «نووووو!».

وزمجر حسن في اقتضاب وغضب: «نااووو!».

وصاح نور في الرجال من حوله وقد تحجر الدمع في عينيه:

«مارضيش الندل يسأل فيها... إداها ضهره وراح للبت فردوس تاني... نادت عليه نعيمة لما حسها اتنبح، تعمل إيه؟!... نطت له من فوق!».

وصرخ الباشريس منتصرًا:

«هي النطه دي اللي سقطتها!!».

«اسأل الرجال اللي كانوا واقفين ياباشريس... نعيمة نطت زي الفراشة... وقفت قدامه هنا هو... هنا هو!».

كان المشهد لابد عنيفًا. انزوي مشمش بعيدًا وهو يري مخالب نعيمة وأنيابها وهي تصرخ في وجه فردوس... وحاول حسن أن يطردها فلم تطعه... رفع يده عليها فصفعته على وجهه وصرخ مشمش وقفز عليه، غلا الغضب في عروق حسن فهوي بقبضته فوق رأس نعيمة، صرخت فردوس وأنشبت أظافرها في جسد مشمش، وماءت نعيمة وهي تسقط على الأرض بلا حراك، وهجم مشمش ليلتحم بحسن في عراك وحشي، وانقضت فردوس فوق جسد نعيمة وراحت تضربها بلا رحمة... وتعالي الصراخ والمواء والتحمت الأجساد ثم تفجرت الدماء من جسد نعيمة على غير انتظار.

وقتها فقط كف الجميع عن العراك.

«بتولد.... العيل نازل.... آهه.... دي بتولد!».

خفقت قلوبنا جميعًا ونحن نندفع نحو الكابينة، وكان الدمع في عيني نور قد سال، وكف الباشريس عن صراخه وزاحمنا جميعًا حتى وصل إليها... كان هو الوحيد فينا الذي يعرف ماذا يجب أن يفعل، وانحني فوق نعيمة في رفق.... وضع كفه الأيسر فوق جسدها، وامتدت يمناه تجذب الطفل في حنان... وساد الصمت تمامًا، ثم جاء صوت الباشريس خافتًا:

«العيل نازل ميت!».

وهمس نور في توسل:

«شوف الباقي يا باشريس... العيال التانيين!».

وأنَّت نعيمة أنينًا خافتًا، وبدأنا جميعًا ننسحب وفي حلق كل منا غصة، كان حسن يقف في آخر الممر وحيدًا وهو ينظر نحونا، وعلي بعد خطوات منه رقدت فردوس فوق الأرض وتمددت في استرخاء وعندما غادر آخر الرجال كابينة نور، جاءنا صوت الباشريس أشد خفوتًا وحزنًا:

«يا حول الله.... التاني ميت برضه يا جدعان!».

وصرخ أحدنا في توسل:

«العيال في ستين داهية... المهم هي... نعيمة يا باشريس، إوعي تروح من إيدك!».

لم يستطع أحدنا أن ينظر في عيني صاحبه، وعندما صرخت نعيمة كانت صرختها ضعيفة مزقت قلوبنا... وقال الباشريس: إن الطفل الثالث جاء هو

الآخر مينًا، ثم ساد بعدها الصمت تمامًا... لم يعد هناك حس ولا صوت، ولا أنين ولا صراخ، وطالت الدقائق دقيقة بعد دقيقة، وبدأ القلق يأكلنا ولم نكد نسأل عن الخبر حتى دهمنا وجه الباشريس وقد استدار إلينا، كانت ملامحه الصخرية قد تحولت إلى قطعة عجين بلا ملامح، وكانت عيناه الضيقتان الثاقبتان شديدتي الاحمرار... وقف الرجل أمام نور وكان واضحًا أنه يقاوم، غير أن مقاومته انكسرت عندما فرت من عينه دمعة وهو يقول:

«تعيش أنت يا نور... تعيش إنت!!».

كان جسد نعيمة قد سكن تمامًا وهو ممدد فوق الفراش وسط بركة من الدماء اللزجة... ومن حول الجسد كانت أحلامنا قد ولدت ميته!

ذهبت نعيمة... ماتت!

ولقد دفناها كما ندفن كل الرجال الذين يموتون منا.... وكان مشهد سقوطها إلى المياه وهي مدثرة بذلك الرداء الأبيض، كمشهد عذراء تزف إلى مجهول... وبعض الرجال منا ذرفوا دموعًا، وبعضهم أغرق أحزانه في الخمر... رجل واحد اختفي من السفينة في نفس الليلة دون أن نعثر له على أثر.... اختفي وظل اختفاؤه حتى الآن سرًّا لايعرفه أحد... وكان هذا الرجل هو مشمش!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حـــادث فـــي عرض البحـــــر

– 1 –

كان الصالون الكبير يموج بالحركة، الضباط والركاب والضحكات والصيحات والموسيقي الصاخبة... وكان القبطان يبدو شديد الوسامة وهو يراقص سيدة عجوزًا لا تكف لحظة عن الحديث... وفي ركن من الصالون تهامس اثنان من الضباط وكان أحدهما يبدو صغير السن إلى حد لا يصدق، وهما ينظران إلى القبطان ثم ضحكا معًا وقد بدا أن الخمر لعبت برأسيهما قليلًا، واقتحمت عليهما خلوتهما فتاة كان الحب يطل من عينيها دون مواربة، وصاحت في الضابط الصغير:

«ألا تريد أن تحيط خصري بذراعك؟!».

وانحني صاحبنا انحناءة كبيرة، وابتسم لصاحبه ثم غمز له بعينه، واندفع يحيط خصر الفتاة بذراعه وهو يهمس:

«قلت لك: إنك صغيرة السن، ولا تصلحين حبيبة لمن هو مثلي!».

ومن الطرف الآخر للصالون صاح رجل أسمر الوجه، كان واضحًا أشد الوضوح أنه مثقف هندي، وهو يوجه حديثه للقبطان ضاحكًا:

«هل أنت متأكد من أن السفينة تسير في الاتجاه الصحيح يا كابتن؟!».

وتوقف رجل قصير القامة عن الرقص، ودس يده في جيبه وأخرج رزمة من الأوراق المالية الخضراء، ورفع يده في الهواء ملوحًا بالنقود صائحًا بلسان متلعثم:

«أنا رجل أمريكي، وكرجل أمريكي أراهن بمائة دولار أن السفينة تعود بنا إلى مصر، وأن هؤلاء المصريين يستعدون لوليمة يأكلوننا فيها... من يراهن؟!».

ولم يبد على أحد أنه سمع الرجل الأمريكي، ولم يتوقف أحد عن الرقص، ولم تكف الموسيقي عن الصخب بطبيعة الحال... ولم يلتفت القبطان، وابتسم للسيدة العجوز قائلًا:

«أرجو أن تستمر الرحلة على ما يرام مسز تورمي!».

«أنت وسيم جدًّا... يا أميري الصغير!».

كان لسانها متلعثمًا تترنح الكلمات فوق طرفه، وحانت من القبطان نظرة نحو باب الصالون، فلمح طالبًا بحريًّا يقف في فانلته السوداء، وقبعته المتسخة... وكان يبدو على الطالب البحري أنه متردد، فأومأ القبطان برأسه... واندفع الشاب يخترق جموع الركاب مسرعًا..

وعندما غادر الطالب صالون السفينة كان كل شيء كما هو، الركاب والضباط والرجل الأمريكي والفتاة الصغيرة، وكانت الموسيقي تعزف لحنًا حالمًا فهدأت حركة الراقصين، وتأبطت العجوز ذراع القبطان وهما يعودان إلى المائدة، ولم تر تلك النظرة السريعة التي قذفها القبطان في وجه أحد الضباط... وسرعان ما تبادل الضابط نظرة أخري مع الضابط الصغير وهو ينسحب نحو الباب مسرعًا... وكان القبطان وقتها ينحني على مسز تورمي وهو يهمس:

«هل تسمح سيدتي؟».

«أنت رقيق!».

وغاصت الابتسامة في وجه القبطان فتحجرت ملامحه واستدار مبتعدًا لا يلوي على شيء...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 2 –

في الخارج كانت مياه البحر تبدو شديدة الصفاء، وكان القمر بدرًا يطل من أعلي في كبرياء فضية اللون، وكانت السفينة تتمايل يمنة ويسرة في خفة ورقة، وكان السكون شاملًا، والصمت عميقًا لدرجة كانت تحبس أنفاس الرجال الذين بدت أشباحهم هنا وهناك... أما غرفة القيادة فكانت مظلمة، وكان الضباط قد تناثروا فيها صامتين، وبدا البحار الواقف خلف الدومان كجذع صاري ثبت في مكانه، وأشعل القبطان سيجارة توهجت في الظلام لفترة، وسأل وهو يحملق في المياه الممتدة أمامه: «العمق كام يا عادل؟!».

«69 يا قبطان...».

لم يكن هناك سوي شعاع مصباح أحمر صغير، ودلف الضابط الأول - وكان قد خلع ملابسه وارتدي معطفًا ثقيلًا أسود اللون - من الشرفة اليمني على عجل، وقال للظلام الأحمر في لهجة سريعة حاسمة: «فيه فنار باين قريب... المسافة كام يا فاخر؟».

واندفع الضابط الصغير نحو الرادار، ودس وجهه في فتحته، وحرك بيمناه زرًّا، ومضت لحظة صمت قال بعدها: «10 ميل!».

وأتي صوت القبطان متسائلًا في هدوء: «ألسطة الخطاف؟!».

فرد الضابط الأول:

«كله ألسطة!».

قالها وهو يندفع مغادرًا الغرفة على عجل.

كانت السفينة واقفة في عرض البحر، وكان واضحًا أن هدوء البحر هذا ليس سوي كذبة كبري، فالأمواج المدفونة كانت تدفع السفينة الواقفة في عرض البحر نحو الجزيرة القريبة... وعم الصمت هذه المرة طويلًا وكأنه لن ينتهي... وكان الرجال واقفين وكأنهم تماثيل من الظلال، ثم جاء صوت القبطان بعد أن توهجت السيجارة ذات مرة: «العمق كام يا عادل؟!».

«61 يا قبطان!».

«الجزيرة نوعها إيه؟».

«صخرية....».

«المسافة؟!».

وصاح الضابط الصغير: «8 أميال يا قبطان!».

ولم يدم الصمت طويلًا هذه المرة، فقد صدر الأمر حاسمًا: «ألسطة المخطاف!».

ورفع أحد الرجال سماعة التليفون ثم قال: «ألسطة المخطاف!».

«اسأل الماكينات!».

«آلو... يامكنات... فاضل لكم قد إيه؟!».

ثم وضع البحار السماعة والتفت نحو القبطان وقال: «قدامهم عشر دقايق!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 3 –

دب النشاط فجأة في أجساد الرجال عند المقدمة، كان ضوء القمر يظهر كل شيء بوضوح كامل، وكان الضابط الأول يقف وهو يصوب مصباحه نحو الونش الصغير، وهوت يد الباشريس فوق السلسلة الضخمة فتحركت حركة واحدة دوت في السكون... وهمس الضابط الأول: «فوندا واحدة واحدة!».

وارتفعت يد الباشريس مرة أخري في ضوء القمر، وهوت بمطرقة فوق قفل حديدي ضخم، فانفجر القفل مفتوحًا وبدأت السلسلة تتحرك في ضجيج بدد سكون القمر، وتعلق الضابط الأول بسياج السفينة، وتدلي جسده نحو المياه، وصوب مصباحه نحو المخطاف الهائل الذي كان يتدلي ببطء نحو المياه حتى لامسها... فصاح الضابط الأول: «إيييها!».

وتوقف الونش وهو يئن بثقل المخطاف، وساد الصمت تمامًا،وخطا الضابط الأول نحو تليفون صغير، ورفع سماعته ثم قال: «ألسطة المخطاف!».

كان الجو شديد البرودة، وبدأت أيدي الرجال تتجمد، وتجمدت أجسادهم وقد تعلق بصر كل منهم ببقعة لامعلومة من الكون الصافي من حولهم كالبلور، كانت الدنيا تبدو في تلك اللحظات غريبة، كانت تبدو شديدة الوداعة، رقيقة، حالمة... كأنها فتاة في الرابعة عشرة.

غير أن السكون بدأ يتبدد تحت وقع خطوات ثقيلة راحت تدب فوق السطح نحو الرجال... والتفت كل الرءوس نحو الشبح الذي كان يقترب.. ورغم أن كل واحد منهم كان يعرف صاحب هذه الخطوات، ورغم أن كلًّا منهم كان متأكدًا من أن ظنه صحيح، إلا أنهم ظلوا يحملقون في الجسد المترنح الآتي من الداخل، كأنهم جميعًا قد اتفقوا على ألا يصدق أحد منهم نفسه... لكنه كان عم حسنين.

«إيه اللي حصل؟!».

قطع صوته الشك بيقين لا يقبل الجدل... وصاح الضابط الأول غاضبًا: «إنت سبت سريرك ليه يا عجوز؟!».

«إيه اللي حصل؟!».

وقال رجل كان يقف في نهاية مقدمة السفينة فوق البحر تمامًا: «يا رجل إنت عيان، روح نام إلا تموت بإذن الله كده!».

«ما تقولوا يا ولاد إيه اللي حصل.... المركب واقف ليه؟!».

«وحانرميك للسمك يا كلك!».

وصاح عم حسنين فجأة في وجوه الجميع: «المركب واقف في عرض بحر... أسيبكم لوحدكم إزاي؟!».

ولم يستطع أحدهم أن يرد عليه!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 4 –

لثوان خاطفة بدا الجو في صالون السفينة يكفهر، توقفت الموسيقي وترنح الرجل الأمريكي أمام العجوز صائحًا: «مسز تورمي.. أنا رجل أمريكي، وكرجل أمريكي أراهن أنك حزينة لغياب القبطان!».

واشتد احمرار وجه مسز تورمي، وتلفتت حولها باحثة عن لا أحد.. وتقدم المثقف الهندي من الرجل الأمريكي وقال: «عزيزي دافيد.. أنا رجل هندي، وأنت رجل أمريكي... وكرجل هندي لرجل أمريكي أراهنك أنك شربت كثيرًا هذه الليلة!».

ومد الأمريكي يده مصافحًا وهو يقول: «قبلت الرهان!».

فصاحت مسز تورمي:

«سوف تخسر!».

وصاح الأمريكي مصدقًا: «إذن سأدفع... موهامد... موهامد.... زجاجة ويسكي!».

وانفجر الجميع في الضحك... وصفق كل من في الصالون، ماعدا الفتاة الصغيرة... كان شعرها الأصفر مهدلًا فوق وجهها، وكانت تقف بجوار إحدي النوافذ وهي تطل على البحر، وبدا عليها أنها تعاني من إحساس غامض، لكنها يقينًا كانت تفكر في الضابط الصغير السن إلى حد لا يصدق!.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 5 –

دق جرس التليفون في صراخ حاد... وكانت غرفة الآلات تشغي بالرجال والضجيج وصاح المهندس الأول من بين قضبان الآلة:

«قول لهم عشر دقايق!».

رفع الوقاد سماعة التليفون وقال قبل أن يسمع شيئا: «عشر دقايق!».

تم وضع السماعة وخطا نحو الأمام خطوة، ثم قذف بجسده في الهواء وقد تعلقت يداه بسياج الممر الحديدي، ودثرته على الفور سحابة من الهواء الساخن المتصاعد من الآلة، وكان المهندس الأول راقدًا وقد تدلي رأسه في فجوة في الأرض، وراحت يداه تعملان بسرعة، وكان العرق يتساقط من كل مسام جسده، وكان هدير الآلات المتوقفة يسد على الآذان كل منفذ، وبدأ المهندس الأول يخرج رأسه من الفجوة، ثم قفز ناهضًا وهو يصيح بكل صوته في أذن مهندس آخر:

«افتحوا البلوف وشوفوا الزيت علشان نجرب!».

وهز المهندس الآخر رأسه وانصرف، واستدار المهندس الأول نحو الآلة وهو يمسح يديه من آثار الزيت والشحم، ثم تجشأ، وابتسم، وهمس لنفسه متحدثًا إلى الآلة بصوت عال:

«عارفة يابت لو مشيتي، تبقي حبيبتي صحيح!...».

وعلا صوت صفير حاد من آخر الغرفة فاعتدل في وقفته، وعاد المهندس الآخر مسرعًا ثم راح يفتح أحد الصمامات في بطء، وتركزت كل الأنظار على ذراع الآلة اللامع، وزمجر البخار في الداخل فزمجرت الآلة وهي تتحرك في بطء، وازدادت ابتسامة المهندس الأول اتساعًا، وتحرك الذراع منتفضًا في قوة، ثم هدرت الآلة وهي تتحرك مسرعة، وقفزت السعادة من عيني المهندس الأول وهو يصيح:

«آهو كده تبقي حبيبتي صحيح!».

وقبل أن يكمل جملته، تجشأت الآلة كمية هائلة من البخار في وجهه، ثم همدت حركتها دفعة واحدة، وسكنت تمامًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

– 6 –

قال القبطان بصوت هادئ:

«فوندا المخطاف!».

وسمع الرجال في غرفة القيادة صوت الباشريس في مقدمة السفينة وهو يصيح: «فووندااا».

وانفجر صوت السلسلة وهي تهوي بالمخطاف نحو المياه، وتبدد السكون لثوان، وكان صوت السلسلة وقرقعتها تخفت تدريجيًّا، ودق جرس في المقدمة دقة واحدة، وظلت السلسلة تهبط ببطء، ثم دق الجرس دقتين، وساد السكون تمامًا.

وتهادت السفينة فوق موجة لا تظهر للعين، وبدا البحر في ضوء القمر كأنه نوع من الأبدية، كأن الشمس لن تشرق أبدًا... ثم هبت ريح خفيفة، وأشعل القبطان سيجارة جديدة، وجاء صوت الضابط الصغير شديد الثبات: «الفنار قريب على ستة أميال!».

واشتد هبوب الرياح فجأة، وتمايلت السفينة أكثر، وقال الضابط الآخر: «العمق 57!».

فقال القبطان:

«ألسطة مخطاف جنب شمال!».

وقفز الضابط الصغير من مكانه نحو الممشي الأيسر، تقدم من السياج ببصره نحو الرجال عند المقدمة، كانوا يبدون له كظلال يعرفها جيدًا، وتصاعدت إليه مع نسمة هواء أنغام موسيقي الصالون الصاخبة، وتذكرها، فمال بعينيه نحو السطح اللامع بضوء شديد النقاء، وتساءل بينه وبين نفسه.... هل من الممكن أن يعرف الإنسان الظلال؟!

وبدا له السؤال غريبًا وبلا معني.... وألقي ببصره نحو المياه فرأي حركة السفينة مع الرياح، بلل إصبعه ثم شرعه في الهواء، وهمس وهو يعود: «ريح شمالي... الدنيا برد!».

وأطفأ القبطان سيجارته وقال: «فوندا مخطاف شمال!».

وتعالي ضجيج السلسلة الأخري وهي تهوي بالمخطاف نحو المياه،وتعكر السطح من حول السفينة، واستدار القبطان لأول مرة نحو الداخل... فأضاء مصباحًا في وسط الغرفة، وبدا وجه القبطان غريبًا، وتحرك الرجال بسرعة،

وبعد ثوان كان النور يغمر السفينة كلها، وبدت في ذلك الليل وكأنها كرة من الضياء تاهت وسط الكون!

«حضروا قوارب النجاة!».

قالها القبطان وهو يخرج إلى الممشي الأيمن، بدون أن يختلج صوته في حرف مما قاله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 7 –

همس أحد الرجال وهو يدس كفيه تحت إبطيه ويعطي ظهره للريح: «الريح شدت، النوة نازلة».

ورفع زميله رأسه نحو السماء، ورأي ركامًا من سحب سوداء تزحف من الشمال وتخفي النجوم وتحجب القمر... وأشعل الضابط الأول سيجارة وهو يحملق في الظلام المحيط بهم، وألقي ببصره نحو جسد تكوم بجوار لفة هائلة من الحبال...

كان الرجال يبدون جميعًا وكأنهم تجمدوا، كانت أجسادهم ثابتة ساكنة تمامًا، ثم صاح أحدهم في الجسد المكوم بجوار الحبال: « حاتموت وحياة المرسي أبو العباس، وحانرميك للسمك ياكلك!».

ولوح العجوز بذراعه منذرًا:

«اسكت يا جدع أحسن ربنا يسخطك!».

وقال الضابط الأول:

«مين اللي قالك تقوم من السرير؟!».

«ماكينة الدومان تحت ودني، وعمود الرفاص ساعة ما يسكت لازم نصحي من أحلاها نومة!».

«يا راجل إنت عيان، وقدامنا كتير على ما نوصل، والدكتور قالك.....

«أنا ماأحبش الدكاتره!».

«والنبي حاتموت!».

«عمود الرفاص وقف صحيت من النوم... تبقي المركب واقفة في عرض بحر وجنبها صخر وأسيبكم لوحدكم إزاي؟!».

عوت الرياح فأدار الرجال وجوههم بعيدًا عنها، وانحني كل منهم على نفسه وهو يدس يديه تحت إبطيه، وتلاعبت الأمواج بالسفينة فتمايلت أجسادهم فوق سطحها في ثبات، وسعل العجوز طويلًا، سعل وسعل وسعل ثم نهض إلى السياج وبصق في وجه البحر!

كان واضحًا أن المرض يشتد عليه، لكن أحدًا من الرجال لم يقل شيئًا... وعندما دق جرس التليفون المعلق بجوار الآلة، استدارت نحوه كل الرءوس، واستمع الرجل إلى ما قيل ثم أعاد السماعة وهو يقفز من مكانه كالملسوع:

«فوندا كل المخطاف يا قبطان... الريح شادة والجزيرة قريبة والعمق بيقل!».

وقفز عم حسنين من مكانه مرة واحدة... ودبت أقدام الرجال فوق السطح، وكانت أشباحهم تبدو من غرفة القيادة وكأنها لوحة رائعة لمصور عبقري!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 8 –

«موهاميد... موهاميد.. أين كل الضباط.... هل حدث شيء؟!».

كانت العجوز تترنح في جلستها وقد انتابها القلق، وكان الرجل الأمريكي يقف عند البار وهو يقول: «موهاميد... أنا رجل أمريكي، وكرجل أمريكي أستطيع أن أراهن بعشرين دولارًا أني لم أشرب كفايتي هذه الليلة، هل لديك مزيد من الويسكي؟».

وسار المثقف الهندي نحو النافذة، ووقف بجوار الفتاة الصغيرة وراح يطل معها على المياه في الخارج، وما لبث أن أشعل غليونه ونفث الدخان بعيدًا ثم تمتم: «ليلة جميلة يا ماريا!».

وهزت ماريا رأسها دون كلمة...

في المقدمة كان كل الرجال قد تكوروا في أماكنهم... وكان سعال عم حسنين يزداد حدة، ورفع أحد الرجال رأسه إليه وصاح: «يا راجل قوم انزل سريرك... إنت عيان!».

وقبل أن يفتح العجوز فمه انفجر في الجو صوت اهتزت له قلوب الرجال... قفزوا جميعًا في وقت واحد وكأنهم لُدغوا في ثانية واحدة، وصرخ عم حسنين وهو يلقي بنفسه فوق ذراع الونش: «السلسلة حا تقطع.... بلغ القبطان يا جدع وهات لي تلات أقفال لجنب شمال وزيهم لجنب يمين!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 9 –

كان كل ما يقوله عم حسنين ينفذ دون كلمة... وكانت إحدي حلقات سلسلة الخطاف الأيسر مفتوحة وكأنها قطعة عجين، وأيقن الجميع أن سلامة السفينة أصبحت على كف الريح تمامًا... واندفع الضابط الأول يهبط الدرج ويقفز الممرات ويخترق الأبواب كالمجنون... ولمحته الفتاة الصغيرة وهو يمضي بجوار الصالون فصاحت به: «كابتن!».

غير أنه لم يرد عليها، واندفع إلى الخارج وراح يعدو في الممر الأيمن ولم يكن يشعر بلسع الريح أو قرص البرد لوجهه... بعد ثوان كان يقف بجوار الرجال ثم يذوب جسده وسط أجسادهم وقد انحنوا جميعًا فوق الحلقة المفتوحة.. وعرف من أول نظرة أن السلسلة من الممكن أن تقطع، وأن المخطاف من الممكن أن يضيع في المياه، ولن يكفي مخطاف واحد لحمل السفينة في وجه هذه الرياح، وليس بينهم وبين الصخور سوي أمتار، وتفصد العرق من جبينه وهو يلقي بنفسه فوق القفل الحديدي ويضغط، لكن الحلقة المفتوحة كانت تتحرك، فصرخ بكل صوته: «واحد يساعد العجوز ويمسك دراع الونش!..».

واندفع رجل نحو ذراع الونش ووقف حائرًا، كان جسد العجوز منتصبًا كالوتد، وكانت يده تقبض على ذراع الونش وقد برزت عروق وجهه وجحظت عيناه...

«إيدي معاك يا عجوز!».

«ساعد القبطان... أنا هنا كويس!».

وصرخ الضابط الأول:

«يا راجل إنت عيان!».

وتمتم الباشريس:

«حاتموت ومقام المرسي!».

وصرخ عم حسنين بكل صوته في الفضاء: «يا مرسي يابو العباس... يامرسي!».

وتوقفت السلسلة المفتوحة عن الحركة، وثبت الضابط الأول القفل في مكانه، ثم نهض وقد علت وجهه ابتسامة عريضة... وما كاد يفتح فمه، حتى تجمدت الكلمات على شفتيه، وجحظت عيناه وتسمر في مكانه مشدوهًا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

– 10 –

صعد المهندس الأول من تلك الفجوة في أرض غرفة الآلات وكان منظره يبعث على الضحك، كان يبدو وكأنه استحم في زيت قذر، وكانت عيناه تبدوان حائرتين، ودق جرس التليفون فصاح: «قول لهم ألسلطة!».

لم يكن واثقًا مما يقول.. مسح العرق عن جبينه ثم نظر إلى الآلة في شغف...

«كده برضه تكسفيني؟!».

ثم تقدم منها خطوة وتحسس ذراعها اللامع في حنان...

«أنا عارف إنك محتاجة لحاجات كتير.... لكن أعمل إيه، مش بإيدي!».

واستدار بعينيه نحو المهندس الآخر وقال: «الزيت مضبوط؟!».

«مضبوط ياباشمهندس!».

«افتح البلوف واحدة واحدة....».

وما إن مضي المهندس الآخر حتى التفت المهندس الأول نحو الآلة من جديد: «المركب حاتروح مننا وانتي السبب!».

وعلا الصفير الحاد من آخر الغرفة فمسح على ذراعها اللامع من جديد: «حاتمشي المره دي على طول كلها تلات أيام وأجيب لك طقم جديد!..».

ووضع يده فوق الصمام وعيناه مثبتتان بالذراع.. وتحركت يده في بطء شديد واحتبست أنفاس الرجال وظلت الذراع ساكنة... وتحركت يده تفتح الصمام أكثر، وعلا صفير البخار في أذنيه، وزامت الآلة، ثم تثاءبت في حركة بطيئة طويلة... وهمس المهندس الأول متوسلًا: علشان خاطري:

واندفع الذراع اللامع مترددًا في حركة سريعة صاخبة... ثم انتظمت الحركة تدريجيًّا، ورفع المهندس يده من فوق الصمام وراح يرقب الآلة في إعجاب... والتفت نحو المهندس الآخر وألقي إليه نظرة، فقفز هذا إلى التليفون، ورفع السماعة وصاح: «كله تمام.... الماكينات ألسطة!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

– 11 –

أطلت مسز تورمي من النافذة اليمني للصالون وراحت تحملق في الفضاء... وطلب الرجل الأمريكي لحنًا صاخبًا جديدًا، ووضع المثقف الهندي غليونه في جيبه واستعد لمغادرة المكان، وكانت الفتاة الصغيرة تجلس وحدها في ركن الصالون، كانت تدخن بشراهة، ثم انتفضت على صراخ مسز تورمي: «إننا نغرق... أين القبطان؟!... إننا نغرق!».

انتاب الجميع وجوم مفاجئ وهم يرون العجوز وهي تندفع كالمجنونة: «صدقوني... إنهم ينزلون قوارب النجاة!».

وصاح الأمريكي:

«إني أرحب بالموت... لأني لن أتزوج بعده!».

«ماريا... ماريا... موهاميد... إننا نغرق!».

ودلف الضابط الصغير من باب الصالون، فاندفع الجميع نحوه..

«لماذا تنزلون قوارب النجاة؟!».

«لقد كانت السفينة واقفة!».

«هل نحن في خطر؟..».

وتقدمت ماريا من الضابط حتى كادت تلتصق به، ثم رفعت عينيها إلى عينيه وعضت شفتها: «فاخر... هل حدث مكروه؟!».

وابتسم الضابط ابتسامة باهتة وهو ينحني نحو مسز تورمي: «إنها مجرد مناورات مسز تورمي!

«لقد أنزلتم قوارب النجاة!».

هذا روتين لابد منه!».

«اسمع يا ضابط.. أنا رجل أمريكي، وكرجل أمريكي أراهن...».

وقاطعه الضابط:

«لقد كسبت الرهان مستر دافيد... هل تقبل دعوتي على كأس؟!».

وتفرق الجميع ضاحكين... وكانت ماريا تنظر في عيني الضابط.

«إن عينيك حمراوان!».

«كانت الريح شديدة!».

«كأنك كنت تبكي منذ لحظات!».

«ألم أقل إنك ما زلت صغيرة السن؟!».

«ماذا حدث؟!».

«تعطلت إحدي الآلات وكنا بجوار جزيرة صخرية!».

«هل كنا في خطر؟!».

«نعم...».

«فلماذا كنت تبكي إذن؟!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

– 12 –

كان الجسد مسجي فوق الفراش، وبدا الوجه المجعد شديد الاصفرار، وكانت الشفة السفلي مقلوبة في اشمئزاز... وظل القبطان ينظر إلى الوجه الساكن طويلًا، وكانت عيون الرجال جافة جاحظة وبدا بعضها مبللًا بدمع خفي، وعندما تحركت عينا القبطان خفض الضابط الأول عينيه وهمس: «محدش قدر يرجعه السرير، كانت السلسلة حا تنقطع وهو اللي شال حمل الدراع كله، قلت لواحد من الرجالة يقف معاه ويساعده، هو اللي مرضيش، حطينا القفل واطمنا على المخطاف... بصيت لقيته بيشهق... هي شهقة واحدة سقط بعدها!».

«ما قالش حاجة؟!».

«أبدًا... شفايفه اتحركت!».

«كان عاوز يقول إيه؟».

«كان عايز يتف!».

ونظر القبطان إلى الوجه الجامد مرة أخري... ثم تمتم متسائلًا: «مفيش فايدة يا دكتور؟!».

كان يبدو غير مصدق، وأطلت الحيرة من عينيه وهو ينظر إلى الطبيب الذي ارتكن إلى الحائط منكس الرأس... ولم يقل الطبيب شيئًا في البداية، هز رأسه نفيًا توقفت هزات الرأس كمن تذكر شيئًا فجأة وصاح: «أنا قلت له ما ينزلش من السرير...».

كان صوت الطبيب عاليًا كأنه صراخ... وانفجر رجل كان يقف خارج الغرفة في بكاء مكتوم.. وترقرقت الدموع في عيني القبطان فهز رأسه عجبًا ونظر إلى الوجه الجامد وتمتم: «كده تعملها برضه يا عجوز؟!».

وتمايلت السفينة مترنحة تحت ضربات الموج الذي كان يعلو لحظة بعد لحظة... وكانت الأنوار على السطح قد أطفئت كلها، ولم يكن هناك قمر... فازداد ظلام الليل سوادًا، كان الظلام يبدو كقبة مخيفة لا ملامح فيها إلا لنجوم باهتة بدت من وراء ذيول السحب السوداء وهي تمضي مسرعة.

وكان الصالون مظلمًا خاليًا... وبين الحين والحين كانت تتوهج في ظلامه سيجارة، وكان الوهج يكسو وجهًا صغيرًا جميلًا لفتاة تبدو في الرابعة عشرة، في عينيها الزرقاوين آثار دموع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

جـــابـــر الصـــــاري

كان نحيفًا كصاري السفينة تمامًا، يخيل لمن يراه وهو يترنح داخل بذلته الواسعة كأنه عدة عصي ركبت وكسيت بطبقة رقيقة من الجلد، ثم أطلق على هذا الهيكل اسم جابر، وأضاف إليه الرجال لقب «الصاري».... والرجل على سطح السفينة ثروة، والذراع لها قيمتها التي يعمل لها الجميع ألف حساب، ولكن جابر لم يكن يصنع شيئًا على الإطلاق، تركه الجميع يجوب ممرات السفينة الضيقة... يترنح جسده الطويل أثناء سيره، وتزحف قدماه داخل حذائه الواسع الكبير، ثم تدفع الحذاء من الداخل فيتحرك جابر فوق الأرض في حشرجة وضيق..

كان كأن كل شيء فيه غير متماسك، ساقاه رفيعتان نحيفتان تجدان داخل ساقي سرواله مجالًا لتخطوا فيه إلى أمام، فالسروال لا يتحرك ساقًا وراء ساق، ولكنه يتحرك جملة، وذراعاه مدلاتان في لا مبالاة وكأنهما خرقتان بجانبه، وجهه نحيف جامد كالصخر، تبرز عظام وجنتيه بروزًا شديدًا، وينحدر على جوانبهما لحم وجهه الرقيق الداكن؛ ليكون ذقنًا لا يدرك إن كان حليقًا أم نابتًا، فهو بين بين، تبرز شعيراته كالشوك في غير نظام، وتتناثر على صفحة وجهه غبراء حائلة اللون.

قد يربد الجو وتتلاعب بالسفينة أمواج ثائرة، وقد يهدأ فتنزلق السفينة فوق سطح رائق كالزيت، قد يكون الأمر هذا أو ذاك، وستجد دائمًا جابر الصاري قابعًا في مكان ما، أي مكان، محملقًا بعينين فارغتين في لا شيء، تفوح منه رائحة الخمر، وتتصاعد من فمه وأنفه حلقات متتالية من دخان سيجارته التي لا تنطفئ أبدًا..

وقد تمر أيام لا يراه فيها أحد، قد ينام الليل، أو ينام النهار، وقد لا ينام على الإطلاق.. قد يأكل، وقد لا يأكل... لا يعرف أحدًا، ولا يعني أحد أن يعرف!.

تمر حياته راكدة وكأنه يعيش في قبر، فهو بلا أهل، لا يعنيه إن أبحرت السفينة شهورًا أو رست سنوات، قد يضربه الرجال، وقد يسخرون منه وقد يسبونه وقد يضحكون عليه... وهو هو دائمًا لا يتغير ولا يخرج عن صمته وهدوئه، عيناه باهتتان ميتتان جامدتان، تحس وأنت تنظر إليهما أن وراءهما فراغًا أجوف يتردد فيه صدي أحداث ماضية...

ويتحدث عنه الرجال ذوو الشوارب الكثة الرمادية والشعور البيضاء، ويقول أحدهم: «كان له من زمن»، ويهز آخر رأسه وهو لا يزال يتساءل في دهشة: «بقي ولية تعمل في راجل كده؟!»... ويعتدل الباشريس بجسده العريض وتمتد يمناه لتفتل شاربه الكث الغليظ ثم يقول: «يا خسارة الرجالة، خمستاشر سنة وهو بالشكل ده!»..

أما الشباب فكانوا ينظرون إليه كأنه دمية، ولا يدري أحد منهم لم يسخرون منه، ولكنهم دائمًا قساة، تمتد أكفهم إليه كثيرًا في صفعات هستيرية كأنهم يدفعون عن أنفسهم أشباحًا مجنونة، وينظر هو إليهم بعينيه الفارغتين دون أن يقول شيئًا، ويغيظهم صمته، فيبالغون في إيلامه، ولكن أحدًا لم يدر إن كان يتألم حقًّا!!

شيء واحد كان الرجال يحسون فيه بحاجتهم إلى جابر... عندما يكتمل المجلس وتنتصب الزجاجات وسط الرجال كالآلهة الصغيرة، وبعد الكأس الثانية لابد أن يصيح أحدهم ضاحكا:

«فين المزة؟ ما ينفعش الشرب من غير جابر!».

والحياة في البحر تحتاج دائمًا إلى ابتسامة، والكأس تحتاج إلى ضحكة، وكلاهما يحتاج إلى جابر الصاري الذي يأتي مترنحًا، تنفرج شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة باهتة، ويتوهج بين أصابعه النحيلة لهب سيجارته، وتفوح من فمه رائحة الخمر... وتتمايل الزجاجات، وتقرع الكئوس، ويدور الحديث خشنًا فظًّا، ويختلط صوب الرجال بخرير المياه أو زمجرة الأمواج، وترتفع الأكواب إلى الأفواه، ويعب جابر الكأس تلو الكأس، ويفح بصوته المتحشرج الصدئ، ثم يمسح شفتيه بظهر كفه ويجذب نفسًا من سيجارته، ويدور بعينيه الفارغتين في الوجوه وكأنه يدور بهما في الأفق ولا يري شيئًا... وينبثق صوت ماكر:

«والله مرحب يا جبورة!».

ويأتي صوت آخر أشد مكرًا:

«ما تشرب يا صاري كبايتك فاضية؟».

وتتصاعد الضحكات، وتنعقد الكلمات في رأس الصاري الفارغة فلا تعنيه في كثير أو قليل.

وفي البداية - منذ سنوات طويلة - كان حديثهم يبدو له حنونًا، وكلماتهم طيبة، وكان ينطلق حاكيًا كل شيء، ثم أخذ يتلهف لكي يقص قصته، ثم بدت له ابتساماتهم وكأن فيها شيئًا يغضبه، والكلمات ترسم في رأسه خطوطًا رفيعة، خطوطًا تتجاور لتصنع طريقًا عريضًا أملس يقود لسانه إلى الانزلاق، فيقص القصة من جديد، وأخذ بعد ذلك يقصها مرات ومرات وظل يقصها خمسة عشر عامًا دون أن يطلب أحدهم ذلك!!

والسنوات تمر كثيرة طويلة، رجال يذهبون ورجال يأتون، ولكنهم لا يختلفون، كلهم متشابهون، نفس الوجوه القوية الصلدة، ونفس النظرات القاسية والأذرع المفتولة، وهم يكبرون وهو يذوي، وهم يضحكون، وهو لا يدري سببًا للضحك!

وما يكاد يبدأ في سرد قصته حتى تتوالي التعليقات، ساخرة، حادة كنصل سكين ينغرس في صدره، ويقدمون له كأسًا وكأسًا وكئوسًا فيشرب ويقول لهم: «دي مش أصول» ويقولون في أصوات متضاربة: «عندك حق... متزعلش!» وأصبحت أصواتهم مائعة، وأصبح لا يستطيع أن يعرف إن كانت جادة أم هي أكثر سخرية، وحار في البداية ثم أصبح الأمر لا يعنيه... وما تكاد كأسه الرابعة تختفي في جوفه حتى يسمع صوتًا:

«لسه بتدور عليها؟!».

ويهز رأسه ثم يقول وهو يضرب المنضدة بأصابعه النحيلة الطويلة:

«مش الحكاية بقي لها خمستاشر سنة يا رجالة؟... لكن لسه وعزة الله باحبها!!».

وتدور عيناه على الوجوه وجهًا وجهًا، ثم تفران إلى الكوب، وترتجف يده وهو يرفعها إلى فمه:

«كنت بحبها، وكانت بتحبني!».

«وإيش عرفك؟».

ويرتفع رأسه في حدة، ويبرز أنفه كنصل حاد، وتبرق عيناه وتبدوان وكأنهما شحنتا بالحياة فجأة، ثم يأتي صوته ضعيفًا متكسرًا:

«أنا عارف... كنا. كنا أيامها في مالطة... وقعدنا هناك كتير، هيه، ثلاث سنين، ستة وتلاتين شهر، هيه ستة وتلاتين إيه؟!».

ولا يرد عليه أحد..

ويستقيم صوته شيئًا فشيئًا... وتستبين كلماته وتنطلق من فمه وكأن الحياة تدب فيها من جديد، وتسيل سريعة متلاحقة، ويجرع كأسًا ويضرب المنضدة بأصابعه، ويدور بعينيه في الوجوه، ويجرع كأسًا، والرجال صامتون، وصور زاهية تتراقص في رءوسهم، وعيونهم قد شدت إليه، وآذانهم كأنها تستمع إلى القصة لأول مرة، ويجرع كأسًا، وتحيا ماريا أمام الجميع وتنزلق رءوسهم إلى المنضدة لتجسدها كلمات جابر، وتلتهمها آذان الرجال وتعيش معه السنوات الثلاثة. ويعرفون أباها الذي كان يحبه كابنه، وعندما يقول إنها أخبرته أن في أحشائها طفلًا... يبكي وقد تسقط دمعة تصنعها الخمر من عين رجل أو رجلين، ويبتسم آخر في سخرية والوجوه تميل إلى أمام، وقد تتلاصق فتصنع أمامه جدارًا من العيون المحملقة والآذان المرهفة، وهو يحكي، ويجرع كأسًا، ويعود إلى الوطن فجأة ويعد العدة لإحضارها، وترسل له صورة الطفل الذي

سماه سامي، ويضحك وهو يقول: «الاسم من ده على ده، مسلم على مسيحي!»..

وتمتد يده إلى صدره ويخرج صورة شاحبة تسرب إليها عرق غامق اللون فبدت وكأنها تتغذي بدمائه، وتدور بها يده مرتجفة، وتمتد العيون إليها، وخطاباتها لا تزال معه، تقول: إنها تحبه، ويهيئ البيت، وتمضي الشهور... ويمر عامان.

«أعمل إيه... ماهيتي كانت تلاتة جنيه، يعملوا إيه؟

... بطلت السجاير... بطلت الشاي والقهوة... يدوبك اللقمة!».

وينفعل جابر الصاري، وينفعل الرجال، ويجرع كأسًا، ويجرع الرجال كئوسًا أخري، وتميل الزجاجات ثم تعتدل وتنتصب أمامهم كتماثيل جوفاء خاوية، وتتمايل السفينة وتضرب جوانبها الأمواج، وتتراقص الأنوار، وتتمايل رءوس الرجال، وهو لا يكف... وصوته يأتي عميقًا:

«وهوب... انقطعت الجوابات!».

وتزداد حدته، ويقول: إن الحق معها، ولابد أنها ظنت أنه يماطلها، ويرسل الخطابات تلو الخطابات، ويرد عليه الصمت والغموض...

«ورحت مالطة، مافيش فايدة، أبوها قال لي يا ابني دي اتجوزت وسافرت مع جوزها، على فين، محدش يرد، عملت المستحيل: مافيش فايدة!».

أصوات غريبة تتصاعد في أذني جابر في تلك اللحظة، وطنين يلح، وعيناه لا تفارقان الكأس، وتستبين الأصوات، وتنطلق الضحكات مكتومة، ساخرة... ويطلق أحدهم نكتة يسري بها عن نفسه، وقد ينهره آخر، والدخان قد غلف الوجوه والرءوس، وأنفاس جابر تتردد بصعوبة، ويمضي، وتزحف قدماه فوق الأرض وتذرع الممرات في الليل وفي النهار ويتراقص جسده الطويل كأنه صاري سفينة تتلاعب بها الأمواج... وتمضي الأيام.... وهو هو لا يتغير، صامت، عيناه فارغتان ليس فيهما شيء، وجهه ضامر ناحل، وجلده يرق ويرق، وساقاه الطويلتان تنثنيان وتنفردان ثم تهبط القدم فوق الأرض لتزحف من جديد، وترسو السفينة في ميناء، وينطلق الرجال يجوسون خلال الشوارع الضيقة ذات البلاط العريض بحثًا عن ليلة.

وهو لا يغادر السفينة، وقد يغادرها إلى أقرب حانة، ويجلس طوال الوقت صامتًا، ويجرع الكأس تلو الكأس ثم ينهض مترنحًا في جوف الظلام، وتأتيه أصوات الرجال الثملة... «يا صاارى».... ويمضي، ويزحف من جديد..

وعندما رست السفينة في الميناء الإسباني الصغير، لم يكن أحد ليعني إن كان جابر سيغادرها أم لا، كان يتسلل كالشبح عندما يزحف الظلام، يهبط السلم، ثم يذوب في البلدة؛ ليعود في جوف الليل.

وكان بعض الرجال قد غادر السفينة، والبعض في سبيله إلى مغادرتها، ولم يكن جابر الصاري هناك... كان قد غادرها منذ وقت قصير هو الآخر. والسطح قد ركد وسكن تمامًا، ثمة رجل هنا ورجل هناك، وسكون الغروب قد ظلل كل شيء... وطائر يحوم فوق السفينة وحيدًا، والعلم في مؤخرتها تكاسل واستلقي في استرخاء.

وفجأة... تبدد السكون، وتصاعدت أصوات، وضجة، وحديث، وقسم، وكلام... ولم يكن غريبًا أن يحدث مثل هذا الأمر، ونظر رجل كان في الداخل إلى زميله متسائلًا:

«مش ده صوت الصاري؟!».

وابتسم زميله ساخرًا:

«هو بيعرف يتكلم؟!».

وازداد الضجيج في الخارج، واقتربت الأصوات من السفينة، وثمة رءوس تطل، وتساؤل في العيون، ورجال يخرجون، وصوت جابر يستبين..

كان جسده الطويل منتصبًا كالسيف، وعيناه دبت فيهما الحياة، وذراعاه تتحركان في سرعة وقوة، ورجال حوله، وشاب صغير، صوته مليء، غريب، فيه نشوة وحياة..

«آه... والنبي... والله هوه.. هوه سامي... سامي ابني، ريس عبده، شايف سامي؟ أيوه... ابني سامي.. يا قبطان يا قبطان، يا حضرة القبطان... سامي أهوه... ابني اللي كنت باحكي لكم عنه، آه، آه والنبي... هوه سامي وعزة الله... شوف بقي عريس ازاي... عريس... ابني كبر، بقي عريس، ابني، لقيتهم هنا... ماريا آهه، يا سلام... عمر، زمن... سامي ابني يا رجالة، يا سيد يا سيد، سامي أهه.. ابني.. ابني!».

كان يتكلم ويتكلم، وعيناه تدوران في الوجوه بدهشة، ووجهه كله يبتسم، ولحمه قد استرخي في راحة ونشوة والشاب يقف ذاهلًا، وهو لا يكف عن الحديث، ولا يكف عن النظر إلى ولده، ويده تمتد مرتجفة لتتلمس الجسد الفتي، ويحتضن بنظره وجه ولده... ويمسك بيده، ويحدثه، ويقول في خجل فرح:

«مش فاهمني، ميعرفش عربي، زمن، والله زمن، لكن ده بقي عريس!».

وترتفع كفاه لترسما كلمات وإشارات، والشاب يبتسم ويهز رأسه، وماريا تقف على الرصيف، ودموع تنحدر على وجهها وجابر يهبط إليها، ويحدثها وتحدثه ويربت على كتفها، ويبكي، والشاب تلمع في عينيه الحيرة، والرجال في ذهول، والليل يهبط والظلام يبتلع جابر الصاري ولا أحد يعرف إلى أين!

ووقع الرجال في الحيرة.. ثمة أسي يهبط إلى قلوبهم وثمة فرح غامر وكأن كلًّا منهم قد أنجب طفلًا، والحديث لا يكفي وتهتز الرءوس، وتتوالي التعليقات.

ويوم وراء يوم... وساعة وراء ساعة، ويقترب وقت الرحيل.. جابر لا يظهر... ويأتي يوم الرحيل، وفي العيون تساؤل وقلق، والساعات تنكمش وتصبح ساعة، والساعة تتقلص وتصبح دقائق، وتدوي صفارة السفينة، والسطح كخلية نحل، ولم يبق سوي دقائق... وقتها فقط، ظهر جابر!

كان يسير ويده تمسك بيد ولده، والشاب قد اختفت من عينيه تلك النظرة الحائرة، وكانت الأم تتأبط ذراع زوجها، أما جابر فكان يبدو صامتًا، على وجهه مسحة من حزن عميق، ومسحة جديدة من فرحة طاغية..

بجوار سلم السفينة توقف الركب... واستدار جابر الصاري فإذا جسده مستقيم لا يهتز، وصافح الزوج ثم استدار إلى الأم وصافحها، وعندما واجه ولده توقف قليلًا، ثم مد يده وصافح ولده في قوة، وأشار بيديه أن «اكتب»... ثم استدار نحو السلم وراح يصعده في ثبات..

ومنذ ذلك اليوم لم يسمع أحد من جابر قصة حبه، وظل اسم «الصاري» لاصقًا به لشهور أخري ثم اختفي من أفواه الرجال، واستقام جسده الطويل وامتلأ، وكان كلما اختلي إلى نفسه وجده الرجال يقرأ في كتاب... وعندما سألوه قال في هدوء:

«باتعلم إسباني!».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الكتاب..

إهداءٌ ..

الغضب
– 1 –
– 2 –
– 3 –
– 4 –
– 5 –
– 6 –
– 7 –
القـــــــرش
– 1 –
– 2 –
– 3 –
– 4 –
– 5 –
– 6 –
– 7 –
– 8 –
شــيء بـلا رائـــحــة
خطاب إلى رجل ميت
– 1 –
– 2 –
– 3 –
– 4 –
– 5 –
– 6 –
– 7 –
– 8 –
– 9 –
رقــصـــة الصــبـــاح الباكـــــر
– 1 –

– 2 –
– 3 –
– 4 –
– 5 –
– 6 –
– 7 –
– 8 –
– 9 –
– 10 –
– 11 –
– 12 –
– 13 –
– 14 –
– 15 –
غراميات بحـــار صغيــر الســــن
الحــب يقــتـــل نعيــمـــة
حـــادث فــي عرض البحــــر
– 1 –
– 2 –
– 3 –
– 4 –
– 5 –
– 6 –
– 7 –
– 8 –
– 9 –
– 10 –
– 11 –
– 12 –
جـــابــــر الصـــــاري